رفات القديسين ومتعلقاتهم المقدسة وتوظيفها
في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية

د. حجازي عبد المنعم سليمان[*]

وقرت الديانات السماوية – وأغلب غير السماوية- رفات الموتى وبقايا القبور وحافظت على حرمتها، ولعل في تحنيط المصريين لأجساد موتاهم أحد أهم الدلائل على ذلك، مثلما كانت البوذية تقدس عظام بوذا، وقدست التقاليد الرومانية رفات الموتى بصورة اقرب للمفهوم المسيحي، بينما كان لرفات الموتى في الديانات السماوية- اليهودية والمسيحية والإسلام- حرمة كبيرة، وارتبط ببعضها رموز مهمة كالارتباط بين اليهود وتابوت العهد الذي مثل لديهم أحد أهم رموز البركة والقوة، ناهيك عن تبجيل المسيحيين للرفات والمتعلقات المقدسة وبخاصة صليب الصلبوت وتاج الشوك وما إلي ذلك من رفات ارتبطت بالسيد المسيح – عليه السلام- ارتباطاً مباشراً، في الوقت الذي بجل فيه بعض المسلمين المخلفات المادية للنبي صلي الله عليه وسلم بعضها- كالبردة والعباءة مثلاً- من أهم رموز السلطة لدي العباسيين على وجه الخصوص.

وعدت رفات القديسين في اللاهوت المسيحي مثوى للروح القدس تحل بها وتتحقق حولها الكثير من المعجزات، ولذا اضطرت السلطات العلمانية والكنيسة إلى التساهل في مسألة تداولها وانتشارها أمام ازدياد حاجة المجتمع إلي التبرك بها. وقد وقرت الرفات في أوروبا بشكل كبير وهو الإرث الذي حمله قادة الحملة الصليبية الأولي وجنودها معهم في طريقهم إلي الشرق على ما يتضح من حملهم لبعض الرفات معهم أو قسمهم عليها في طريق رحلتهم إلي الشرق أو ببحثهم عن رفات بعض القديسين في بلاد الشام لحملها إلى مدينة بيت المقدس.

وتعرف الرفات أو الآثار Reliquiae بأنها الأشياء المادية المرتبطة بأجساد القديسين التي اندمج بها القوة المقدسة لهم، كما استخدمت مصطلحات أخرى بديلة مثل المتعلقات أو البقايا Pignora, (Pledges) للدلالة على الأهمية التي تمثلها تلك الرفات[1]. ولا يقتصر مفهوم الرفات على عظام القديسين فحسب وإنما اتسع ليشمل أجزاء من أجسادهم كالأذرع والأقدام والأكتاف والأصابع، ناهيك عن الأماكن التي وزعت فيها ومواضع قبورهم والأدوات التي استخدمها القديسون ومتعلقاتهم الخاصة مثل كتبهم والمقتنيات المادية التي لامسوها أو لامست رفاتهم والأواني التي استخدمها القديس أو استخدمت في نقل رفاته. وعدت الصور والأيقونات بمثابة مزارات مهمة مثل الوجه المقدس Christ s' Volto Santo وكذلك القربان المقدس الذي صار يعامل معاملة الرفات المقدسة حينما انتشرت المسيحية وازداد الطلب على

[*] أستاذ مساعد تاريخ عصور وسطي- آداب المنوفية.

الرفات في الوقت الذي لم يعد فيه شهداء- نتيجة لتوقف الاضطهاد- وحينها صار خمر القربان وخبزه يمثلان جسد المسيح ودمه[2]، علاوة على صور السيدة مريم العذراء وبخاصة في صديانا وغيرها[3] .

وقد صنفت البابوية رفات القديسين ومتعلقاتهم المقدسة على ثلاث درجات يتصدرها رفات القديسين أو أي من أجزائها Integrant مثل الرماد والأطراف والعظام، ويليها المتعلقات والأدوات التي استخدمها القديسون وهم على قيد الحياة على غرار السلاسل التي عُذبوا — أو ربطوا — بها والملابس كانوا يلبسونها والأدوات التي استخدموها والصلبان التي رفعوا عليها[4]...الخ، ثم الدرجة الثالثة الممثلة في "رفات الاتصال" Contact Relics عن طريق وضع قطع من القماش أو الحلي بجوار رفات القديسين فتكتسب قدرة الرفات التي وضعت إلى جوارها أو اتصلت بها[5]، وفي هذه الحالة ترمز رفات الاتصال إلي مملكتي السماء والأرض، فقد كان أصحابها أعضاء نشطين في مجتمع الكنيسة بل وصارت رفات القديس في وقت ما تمثل الشخص نفسه[6]، وقد ارتأى الصليبيون في الرفات القدرة على إحداث المعجزات في الدنيا بالرغم من انتقال أربابها إلي العالم الآخر[7]، وبالرغم من تلك القيمة التي شغلتها الرفات فقد عوملت معاملة البضائع في البيع والشراء وأحيانا السرقة[8].

وثمة مشاكل وصعوبات كثيرة تواجه دراسة الرفات والمتعلقات المقدسة يتصدرها جدل المؤرخين المعاصرين ومن ثم المحدثين المتعلق ببعض الرفات والمتعلقات المقدسة وما ترتب على مواقفهم من نتائج خطيرة، ولأجل ذلك فإن الباحث يواجه مشكلة كبيرة في عرض الأمثلة الدالة على توظيف الرفات، وقد قدم الصليبيون أنفسهم نماذج على حالات الموافقة أو الرفض كما الحال في مسألة الحربة المقدسة التي زعم بعضهم العثور عليها في أنطاكية حينما انهارت الأيديولوجية الصليبية بينما رفض غيرهم القصة من منبعها[9]، وفي فترة متأخرة في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي حينما أشار فلكس فابري إلي وجود كثير من الرفات والمتعلقات المقدسة التي لا قيمة لها نظراً لحالات الغش والخداع التي يقوم بها بعض المسلمون في بيعهم إياها إلي الحجاج، وهذا يعنى أن بعض الرفات التي بني عليها بعض الأحكام قد تكون موضعاً لكثير من الأقاويل بين القبول والرفض.

وعلاوة على ذلك فإن المشكلة الأكثر جدلاً تظل قائمة في فرضية كون الشرق بمثابة أكبر مقبرة جامعة للرفات والمتعلقات المقدسة، بحيث صارت الأماكن التي زارها المسيح- عليه السلام- والحواريون والشهداء متعلقات مقدسة تؤدي دور رفات القديسين في شفاء الأمراض وعلاجها والتصدي للأعداء وإخماد الحرائق والقضاء على الأوبئة والمجاعات أو جلب الرخاء والاستقرار للمكان، وهذا يعنى أن يتعرض الباحث لكافة المزارات التي كانت بمثابة مصدر اهتمام من الرحلة والحجاج كالمقابر والأضرحة والكنائس والأنهار والجبال و الصخور والمدن والقرى و الأحجار الصخرية والصور الزيتية والجدران وما

إلى ذلك[10]، وهو أمر يصعب معه توظيف رفات القديسين ومتعلقاتهم بصورة مباشرة خصوصاً أن ما سبق يدخل في نطاق رحلات الحج المسيحي في الشرق عموماً وبلاد الشام خصوصاً[11].

ولم يقف الباحث في المكتبة العربية على بحث قائم بذاته في موضوع الرفات، بينما وضعت منال محمد السيد بحثا بعنوان "الحربة المقدسة بين الحقيقة والخيال" هدف إلي الوقوف على حقيقة الحربة والانتقادات التي وجهت إليها من المعاصرين والمحدثين دون النظر إلي توظيفها[12]، بينما لم يقف الباحث في المكتبة العربية على عنوان قائم بذاته في هذا الموضوع.

وقد تعددت الرفات التي وظفها الصليبيون على غرار الرفات الجثمانية[13] وصليب الصلبوت- وقطع خشبة الكثيرة التي كانت تظهر من وقت لآخر[14]، والحربة المقدسة التي ظهرت أمام أنطاكية، ودم المسيح- عليه السلام- والسلسلة التي عُلقت في رقبته فاعتاد الحجاج وضعها على رقبتهم على عصر الحروب الصليبية، ومكان طبعة قدم المسيح – عليه السلام- التي أشار بعض الرحالة إلي اشتراك المسيحيين والمسلمين في تبجيلها[15]، وطين حقل في دمشق أشير إلي خلق آدم –عليه السلام- منه وحملت كميات كبيرة منه[16]، علاوة علي الزيوت المقدسة المرشحة من بعض الرفات، وحليب العذراء الذي صدر للغرب، ناهيك عن الحجارة المقدسة المنتزعة من قبة الصخرة ومن مكان الصلب في جبل الجلجثة وعمود الصخر الذي ربط إليه المسيح – عليه السلام- وعذب، وقد نقلت بعض أجزاءه إلي بعض الكنائس في أوربا[17].

وقد سبقت عمليات نقل رفات القديسين ومتعلقاتهم من الشرق إلي أوربا عصر الحروب الصليبية بكثير سواء بالتهادي أم بالشراء أم بأية طريقة أخرى كالسرقة، ولعل وجود أغلب الرفات المتعلقة بالسيد المسيح – عليه السلام- والقديسين المشهورين – الذين استشهدوا في مصر والشام والعراق وآسيا الصغرى – في القسطنطينية[18] لأكبر دليل علي ذلك لاسيما أنه كان للإمبراطورية البيزنطية صلات مباشرة ببلاد الشام أكثر من غرب أوربا الذي لم يعرف بلاد الشام سياسياً وعسكرياً سوى علي عصر الحروب الصليبية، حقاً حصل بعض ملوك غرب أوربا وأمراؤه علي بعض الرفات ولكن غالباً ما حدث ذلك من خلال الإمبراطورية البيزنطية[19] التي سنت لنفسها في إطار الدبلوماسية البيزنطية استخدام الهدايا – بما في ذلك الرفات – لكسب قلوب المحيطين بها[20] "... وتعويضاً على جهوده[21] منحوه[22] أعطيات ثمينة... وقد رفض أخذها... وعندما ترجوه بأن يأخذ هدية ما، طلب أن يعطي آثاراً مقدسة، ولهذا فتحوا كنوزهم وأعطوه بعض الشوك من تاج الرب وواحداً من مسامير الصليب المقدس وقطعة كبيرة من الصليب نفسه ومنديل الرب وقميص العذراء المباركة وأقمشة القماط... وقطعة من مزود الرب وسنان الرمح الذي طعن به جنب الرب، وذراع القديس سمعان وأشياء أخرى كثيرة... وقد جلبهم معه إلي بلاده ألمانيا..."[23]، وهذا وغيره مما يعزز افتراض نقل كثير من الرفات إلي الغرب من خلال الإمبراطورية البيزنطية[24].

وعلاوة علي ذلك فقد نقل بعضها الآخر إلي الغرب عن طريق الهدايا من الشرق مباشرة، ولعل أكبر دليل علي ذلك توزيع رفات بعض الأطفال الأبرياء في جميع أنحاء أوربا *... وحينما فتش بعض الحجاج في الكهف الذي دفنت فيه أجساد الأبرياء الذي قتلهم هيرود لدى بحثه عن المسيح بينهم فإنهم لم يجدوا منها شيئاً..."، وعلل ذلك بأن "... المؤمنين قد قاموا فيما مضي منذ زمن طويل بنقلهم، وآثار هؤلاء الأطفال الأبرياء موزعة في جميع كنائس العالم..."[(25)].

وعلى مستوي الأفراد فقد سعى بعض الحجاج المترددين علي الشرق إلي الحصول على الرفات و المتعلقات المقدسة التي صارت تجارة رائجة في مواسم التردد على المزارات الدينية المسيحية في الشرق[(26)]"... وحصل[(27)] على قطعة من الصليب المقدس من واحد من الشاميين الذين كانوا يحرسون الضريح..."[(28)]، وأقر المؤرخون أن ذلك الحرص كان له ما يبرره بحصول ذلك الحاج علي مكانة اجتماعية كبيرة في الغرب فور عودته"... وكان أحدهم إذا دخل إلي بلاده باليسير منها بني له الكنيسة ويجعل في مذبحها..."[(29)].

وعلى عصر الحروب الصليبية نقلت بعض الرفات والمتعلقات الشرقية إلي مدينة بيت المقدس بمجرد استقرار الصليبيين فيها[(30)]، ولكن غالباً ما نقل بعضها فيما بعد إلي أوربا سواء من خلال السرقات التي كانت منتشرة وشائعة – بل وتم تبريرها[(31)] – أم أنها نقلت على يد بعض الملوك على ما فعل ملك بيت المقدس فولك أوف أنجو الذي "... وضع في كنيسة القديسة مريم العذراء في أمبويز قطعة من صليب المخلص وجذاذة من الحبل الذي ربطت به يد المسيح..."[(32)].

وظل نقل الرفات والمتعلقات المقدسة مستمراً على ما فعل هنري الثالث(1216-1272م) باستقدامه قارورة الدم المنسوب إلي السيد المسيح –عليه السلام– من الشرق من خلال بعض الأمراء وما ترتب على إحضارها من ردود فعل واسعة في أوربا[(33)]، ويبدو أن لويس التاسع Louis Lx Of France أخذ من فلسطين تمثالاً أسوداً مشابهاً لتمثال العذراء الأسود روكومادور Rocamadour وأحضره إلي لي بوي Le Puy عام 1254م[(34)]، وقامت بعض المدن التجارية بدورها في نقل الرفات بحيث انتقل معها صراعها الأوربي علي الرفات إلي الشرق[(35)].

ومع نهاية القرن الثاني عشر وازدهار التجارة في الكيانات الصليبية– التي فتحت سوقاً كبيراً لتجارة الرفات والمتعلقات المقدسة – انتقل كثير إلي الغرب مثل بعض أجزاء جسد القديسة كاثرين السكندريةSt.Catherine Of Alexandria، ولأجل هذا وغيره فقد حظي عصر الحروب الصليبية بسمة كثرة نقل الرفات بكافة درجاتها إلي أوربا وبخاصة المتعلقات المقدسة من الدرجتين الثانية والثالثة نظراً لسهولة الحصول عليها، فنقلت الحجارة المقدسة المنتزعة من قبة الصخرة والزيوت المقدسة وحليب العذراء وصلصال بعض حقول دمشق، ناهيك عن قطع الخشب المنسوبة إلي صليب الصلبوت [(36)] وما

إلي ذلك من متعلقات نقلها الحجاج والملوك ورجال الدين والعامة لأسباب دينية واجتماعية واقتصادية وصحية.

وظل حرص الحجاج قائماً فيما بعد ولفترة طويلة تالية لعصر الحروب الصليبية للحصول على الرفات المقدسة حتى وإن أدي ذلك إلي سرقتها في لحظة سهو من القائمين على حراستها"... لم يرفع راعي الدير الذي وقف إلي جانبي ناظريه عني، وراقب يدي بعناية كبيرة وذلك خشية سرقة أي من الرفات آثار المقدسة، لأنه بالفعل جرت سرقة كثير من الآثار المقدسة في ماضي الأيام من قبل الحجاج، أو أخذت بناء على التماسات الأباطرة والأساقفة والملوك، وجرى إعطاء الكثير وفق هذه الطريقة، حتى أن المتبقي الآن من الجسد المقدس أقل من النصف، ولأنهم يعرفون هذا فإنهم يتولون حراسته بكل عناية من اللصوص ولا يمكن الآن لأعمال التوسل أو الرشوة أن تقنعهم بالتخلي عن أي قطعة..."(37).

وفي ظل حالة الترقب والتلهف تلك على كل ما يمت إلي القداسة بصلة حدثت عمليات تلفيق وتزوير وخداع كثيرة سواء من قبل رجال الدين من الصليبيين الذين مارسوا الخداع علي الحجاج أو من قبل العامة من الصليبيين والمسلمين، وظلت عمليات الخداع والغش قائمة لفترة طويلة فيما بعد، وقد حرص جيوبرت أوف نوجنت علي التنديد بالولع المفرط بالقدرات الفائقة التي تتمتع بها رفات ربما لا يعرف أصحابها، وشدد علي ضرورة التحلي بالحرص الذي يجعل جمهور المؤمنين يفرقون بين الرفات الحقيقية والزائفة(38)، ولكن يبدو أن كلمات جيوبرت هو وغيره لم تأت أكلها بدليل نهب صليبي الحملة الصليبية الرابعة عام 1204م لرفات القسطنطينية ونقلها إلي الغرب(39)، وخصوصاً أن القانون الكنسي اشترط وضع الرفات والمتعلقات المقدسة مجزأة داخل المذابح كجزء من طقوس التكريس في الكنائس(40).

وقد حرصت البابوية علي المستوى الرسمي فيما بعد في مجمع اللاتيران الرابع 1215م علي تقنين هذه الأوضاع حينما نصت المادة 62 علي منع تداول – أو بيع أو شراء – أي رفات جديدة حتى تنص البابوية صراحة على عدم زيفها(41)، وقد يفسر هذا القرار المتأخر بوصفه جاء تالياً زمنياً لاستيلاء الصليبيين علي القسطنطينية عام 1204م وتشبع الغرب بالرفات التي نهبها قادة الحملة الصليبية الرابعة وجنودها من تلك المدينة، بحيث لن يواجه قرار البابا على المستوى الشعبي ما كان يحتمل مواجهته قبل ذلك.

وثمة نوع آخر من نقل الرفات والمتعلقات لم يكن للبابوية سيطرة عليه جاء هذه المرة من قبل المسلمين ليس لتقديسها وتوقيرها وإنما لمنع الصليبيين من التعبد لها، وبخاصة حينما علم المسلمون مقدار القوة الروحية التي كان يتحلى بها الصليبيون بوجود تلك الرفات معهم، وعليه فقد حرص صلاح الدين علي منعهم من الصليب الحقيقي فور الاستيلاء عليه في معركة حطين(42)، وقد أشار الأصفهاني بشكل غير مباشر إلي مقدار الفزع الذي أصاب الصليبيين لمجرد فقدانهم للصليب ولأجل ذلك حرص المسلمون

على حرمان الصليبيين من كافة أسلحتهم المادية والروحية أو لمساومة الصليبيين عليها لأجل المال، أو لبيعها للصليبيين[43].

وعلاوة علي ذلك فقد وظف المسلمون تلك الرفات للمساومة عليها لقاء تحرير الأسرى المسلمين على ما حدث في أغلب الاتفاقات التي عقدت بين الطرفين منذ الحملة الثالثة وحتى الحملة السابعة[44]، وربما لأجل ذلك سعى الصليبيون إلي التخلص من تحكم المسلمين في مصير بعض الرفات والمتعلقات فنقلوها معهم وهم خارجون من المدن المحاصرة من قبل المسلمين"... فقد تبع هؤلاء جميعاً البطريرك في رتل طويل، وهم يحملون التماثيل والصلبان والآثار المقدسة وأوعية القرابين التي كان من الممكن أن تداس بأقدام المسلمين..."[45]، بينما قدم بعضهم أفكار غاية في الخطورة حينما اقترحوا نقل الأماكن المقدسة إلي أوربا قطعة قطعة على ما ذهب فكر بعض الصليبيين عقب انتصار المسلمين علي الصليبيين في حطين ودخول المسلمين مدينة بيت المقدس[46].

وعلى المستوى السياسي ونظراً للقلق الدائم للكيانات الصليبية في الشرق بوصفها كيانات ضعيفة ومواردها البشرية والاقتصادية محدودة وظهير الصليبيين الاستراتيجي والعسكري هش مقارنة بجيرانهم من المسلمين الذين كانت مواردهم في ازدياد وصفوفهم غالباً موحدة فقد سعى الصليبيون إلي توظيف كافة وسائل الدعاية السياسية للضغط على غرب أوربا للحصول على دعمه المستمر.

وكان لتوظيف الرفات في هذه الحالة وجهان: أحدهما يسعى إلي ترسيخ الانتماء إلي الشرق الذي نشأت فيه الكيانات الصليبية بوصفها امتداداً للتراث المسيحي تاريخياً ودينياً بتغليب الطابع المسيحي عليها من خلال الحديث عن الرفات الكثيرة الموجودة في أماكن كثيرة في أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس وبيت لحم والناصرة واللد والجليل ودمشق والرها وما إلي ذلك من أماكن أشار المؤرخون والرحالة – الذين غلب على بعض كتاباتهم الصفة الدينية – إلى احتواء تلك الأماكن على الرفات والمتعلقات المقدسة وعدوها جميعاً مقدسة، ومن ثم دعوا إلي شحذ الهمم إليها من خلال التشويق إلي زيارتها وإثارة العواطف الدينية من خلال سرد القوى الخارقة والمعجزات التي تحققت قديماً وحديثاً في تلك المزارات، وهذا مما رسخ المفهوم الأوربي في ارتباط تلك الأماكن بالمسيحية التي يحميها الغرب بحملاته الصليبية[47].

ويندرج في الإطار ذاته حملات الترويج التي قادها بعض المؤرخين لبعض المتعلقات في الشرق وارتباط ذلك بظروف سياسية معينة، مثل قصص اللوحة الزيتية والزيت المقدس والدهن المقدس واللبن المقدس والينابيع المقدسة والصخرة المقدسة والطين المقدس ناهيك عن مواضع الرفات المقدسة ذاتها وكيفية حفظها وما إلي ذلك من روايات روجت لرفات ومتعلقات مقدسة بعينها، وقد روجت بعض الروايات لبعض الأماكن والأنهار ودللت علي وجود قوى مقدسة بها بما يدفع لزيارتها والتوافد عليها[48].

وقد أضيفت بعض التفاصيل التي تحرر من يخاف على نفسه بما يتناسب مع تفاصيل الرواية، كأن يروج بعضهم لطين حقل دمشق ونظراً لأن دمشق تحت الحكم الإسلامي فقد أضاف المروج بأن المكان الذي يحوي ذلك الطين لا يعيش به أي مسلم لأنهم إن عاشوا بالمكان يموتون خلال سنة "... وعلى بعد عشرة أميال عن دمشق توجد مدينة صيدنايا(49) التي يوجد فيها الصورة المبجلة لمريم العذراء المجيدة التي جلبت من القدس، وقد تحولت هذه الصورة كلياً إلي تكوين جسدي، لذلك هي لا تتوقف ليلاً أو نهاراً عن إعطاء الزيت المقدس الذي يحمل منه الحجاج الذين يأتون إلي هناك من كل جزء من العالم قوارير صغيرة من زجاج، وليس بإمكان أي مسلم العيش في هذه المدينة، فهم دوماً يموتون في غضون سنة"(50).

واستخدمت قصة التمثال ذاته للترويج للقدرة العلاجية التي يضفيها على زوراه بعد تقديم النذور بالطبع بما في ذلك بعض المسلمين – مخالفاً بذلك ما ذهب إليه مؤرخ الرواية السابقة – وذلك علي قول إرنول:"... وقد مسح كثير من الناس أنفسهم به فلم يعانوا بعد ذلك من أي مرض من الأمراض، ولم يتوقف هذا الزيت عن الصدور مطلقاً..."(51)، وكان هذا يعني من جهة أخرى كثرة النذور بكثرة أعداد المقبلين على المكان ومن ثم الرخاء الاقتصادي للمنطقة(52).

وقد تستخدم الرواية استخدام آخر يحرص معه مروجها على توظيفها بصورة تنم عن دراية المروج بالأحداث المحيطة وحرصه على التدخل لمعالجة ما قد يراه من خلالها، ولعل ما يوضح ذلك توظيف الرواية السابقة بصورة أكثر شمولاً حينما عرضها روجر أوف وندوفر – ولكن بتفاصيل أكثر- مشيراً إلي تمثال السيدة مريم العذراء سالف الإشارة (في اليوم الثالث من عيد الفصح من عام 1204م)، وقد عاد للخلف للحديث عن قصة التمثال الذي أسبغ عليه مسحة إعجازية ممثلة في طلب راهبة في صيدنايا من احد الفرسان الذين قدموا من القسطنطينية إلي الشرق لزيارة الأماكن المقدسة أن يجلب معه في طريق عودته من القدس تمثالاً معيناً لوضعه في مصلاها، وكاد الفارس ينسى ولكنه سمع صوت ملاك يحثه على الوفاء بوعده للراهبة فعاد وأحضر الصورة ثم طمع فيها لنفسه وركب البحر عائداً إلي وطنه، ولكن السفينة عادت مجبرة بفعل الرياح وأدرك الفارس أن الرسالة موجهة له بعدما أيقن أن ما يحمله له قيمة إعجازية كبيرة، فعاد به إلي الراهبة ومنحها إياه ومنذ ذلك الوقت قرر ذلك الفارس البقاء في الشرق قريباً من التمثال، بينما تطورت أسطورة التمثال لتصبح على الشكل الذي تحدثنا عنه مسبقاً(53).

وأظن أن هدف مثل هذه القصة في ذلك التوقيت ربما لأنه نتج عن استقرار اللاتين في القسطنطينية بعد عام 1204م قلة عدد الأوربيين المترددين على الشرق بعد أن أصبحت القسطنطينية – التي هم فارس تلك القصة بالذهاب إليها – الوجهة التي جذبت الأعداد الغفيرة من هؤلاء إليها، وربما لأجل ذلك وظفت تلك القصة لتبرير فضل الشرق وما له من تأثير ديني بمعجزاته ورفاته ومتعلقاته

المقدسة المصطبغة بصبغة دينية حالمة، وبخاصة الربط بين رحلة إياب ذلك الفارس إلي وطنه في القسطنطينية وبين اضطراره للعودة ومن ثم الإقرار بما للشرق من قوة عاطفية دينية وتفضيله هو ذاته على وطنه في القسطنطينية[54].

بينما وظف الوجه الثاني لإثارة حمية الأوربيين حينما خبت حماستهم وقلت مساعداتهم إلي الصليبيين في الشرق لحض الغرب بملوكه وفرسانه وعامته للدفاع عن تلك المقدسات بادعاء اعتداء المسلمين عليها، وبخاصة الضريح المقدس وكنيسة القيامة وقبة الصخرة وازدراء المسلمين للصلبان وبعض الرموز المسيحية[55]، وذلك بهدف شحذ همم الغرب مرة أخرى لمساعدة الصليبيين في الشرق.

وكثيراً ما علت تلك النبرة في الأحداث الكبرى التي كانت تفزع الصليبيين وترهبهم، على غرار ما أعقب استرداد عماد الدين زنكي لمدينة الرها[56]، أو خلال محاولات عموري الأول ملك بيت المقدس السيطرة على مصر والربط بين الخطر الناجم عن ضياعها وبين ضياع كنيسة القيامة والقبر المقدس[57]، وما أعقب معركة حطين من استرداد المدن الساحلية وبيت المقدس عام583هـ/1187م [58] واستعادة الخوارزميين لبيت المقدس عام 1144م[59] وغيرها من المناسبات التي كان يرافقها كثرة المراسلات التي بعثها قادة الصليبيين في الشرق إلي الغرب لاستفزازه علي تقديم المساعدة[60].

ولعل من أكثر الدعايات السيئة التي صدرت إلي الغرب وكان لها دور في استفزازه – ومن ثم خروج الحملة الصليبية الثالثة – تصوير صلاح الدين واقفاً بفرسه علي قبر المسيح – عليه السلام- عقب دخوله بيت المقدس عام 583هـ/1187م[61] ووظف روجر أوف وندوفر الرفات المقدسة بشكل مباشر في الدعاية السيئة ضد صلاح الدين[62].

وقد أشار الرحالة فيلكس فابري في محاولة لكسب التأييد الغربي من خلال الدعاية السيئة ضد المسلمين وأعمالهم ضد الصخرة المقدسة إلي قيام المسلمين بالتبول عليها لأنهم يستشيطون غضباً حينما يرون الفرنجة يقبلونها، فهذه الإشارة لا تعدو أن تكون توظيفاً سياسياً ماكراً للرفات المقدسة للدعاية ضد المسلمين، لأنه ادعى أن المسلمين يفعلون هذا التدنيس بالصخرة المقدسة وببقية الأماكن المقدسة الأخرى (63)، أي أن مجرد الإشارة إلي إهانة المسلمين لأي من تلك المقدسات يعد انتهاكاً صارخاً للرفات والمتعلقات المقدسة التي يقدسها الأوربيون على ما قدمه بعضهم في رواياتهم[64].

ولا ريب أن أمثال تلك الروايات كان لها أصداء غاية في الخطورة في الغرب، فكان من نتائج استيلاء صلاح الدين على الصليب ضمن عوامل أخرى أنه "... لم يبق لهم مدينة ولا بلدة ولا جزيرة... إلا جهزت مراكبها، وأنهضت كتائبها وتحرك ساكنها وبرز كأمنها... ونادوا في نواديهم بأن البلاء دهم بلادهم، وإن إخوانهم بالقدس أبارهم الإسلام وأبادهم... "[65].

كما صدرت تلك الدعاية ووظفت في خضم التفاوض بين لويس التاسع ملك فرنسا وبين الخان المغولي في المفاوضات السابقة على معركة عين جالوت بحيث جاء في رد خان المغول على لويس

التاسع لطلب المساعدة ضد المسلمين "... لقد قدمنا مع قوة وأوامر قضت بإعفاء جميع المسيحيين من العبودية ومن الجزية، ومن الإزعاج والمضايقة، ومن الأشياء المشابهة، وأن ينظر إليهم بتشريف وتبجيل، وأن لا يأخذ أحد منهم ممتلكاتهم، وأن يعاد بناء الكنائس المدمرة مرة ثانية، وأن تعاد الألواح، وأن لا يتجرأ إنسان على منع هذه الأشياء، وأن يؤدوا صلواتهم بسلام، وبقلب مطمئن في جميع أرجاء مملكتنا..."[66].

وامتد توظيف الرفات والمتعلقات المقدسة إلي محاور غاية في الخطورة، امتداد للتوظيف الأوروبي لها حينما صارت الرفات والمتعلقات تمثل في بعض الأحيان قوة سياسية وشرعية لحاملها، وهذا ما فعله جودفري أوف بويون – وإن كان رمزاً – حينما ارتدي تاجاً من الشوك واكتفي بلقب حامي حمي الضريح المقدس أسوة بالسيد المسيح – عليه السلام، وقد كفل له ذلك – مع عوامل أخرى – شرعية جعلت حكمه يخلو من المعارضة، هذا في الوقت الذي حرص فيه من تبعه من الملوك على الخروج الدائم إلي ساحات المعارك ومعهم إما الحربة المقدسة أو الصليب المقدس "... لأنه لا يثق في قدرته الذاتية ولا في عدد رجاله الكثيرين"[67].

ويؤكد ذلك سعي الماركيز كونراد دي مونتفرات في مفاوضاته مع الملك ريتشارد قلب الأسد بخصوص مشاركته في الحملة ومساعدة الصليبيين إلى اقتسام الغنائم والصليب المقدس في حال استعادته من صلاح الدين، وقد هدف الماركيز إلى الحصول على قطعة من الصليب لتزكية طموحاته في أن يكون ملكاً للصليبيين في الشرق باعتبار امتلاك الصليب أو قطعة منه بمثابة أحد رموز السيادة الملكية[68].

بينما مثل الضغط الشعبي على الملوك والأمراء أحد اقوي العوامل التي ألزمت السلطة السياسية بتلبية طموحات رعاياهم فيما يخص الرفات والمتعلقات المقدسة وعلى قدر المخاوف الكثيرة التي خالجت كثير من رجال الدين من خروج الصليب بصحبة الملك أو من ينوب عنه إلى طرابلس وأنطاكية والرها بقدر حال الفرح التي كانت تغمر الجميع حينما يعود الصليب إلى بيت المقدس مرة أخرى..."، حيث يخرج الجميع من المدنيين والعسكريين و رجال الدين إلى استقباله"... وهكذا...استقبلنا الصليب المقدس في فرح عندما وصل القدس..."، وأحياناً يكونون في انتظاره على أبواب المدينة التي تزين لأجل ذلك الغرض، ثم يدخل الناس بصحبة الصليب وهم يهللون وينشدون الأناشيد الدينية حتى يستقر الصليب في موضعه[69].

وبالقدر نفسه وللحرص عليه وللخوف من سرقته فإن الصليبيين كانوا يعملون على حراسة الصليب بشكل دائم في بيت المقدس وخارجها، وكثيراً ما كثرت الحراسة في أثناء عودته سابقاً الجيش إلى بيت المقدس، وتعين له الحراسة المشددة في اللقاءات العسكرية التي يحضرها[70]. أما بقية الرفات الجثمانية فقد حرص الصليبيون على حمايتها بوضع أبواب حديدية عليها حتى لا تسرق، وبالرغم من أن غرفة حفظ الرفات المقدسة في دير جبل صهيون كانت مهلهلة فقد وضع القائمون على الدير أبواباً

حديدية وكلاباً لحراسة الدير ومقتنياته من أي هجوم[71]، كما أشار الرحالة فورزبورج إلى حفظ رفات القديس شاريتون كاملاً وكان يعرض على الحجاج دون أن يتعرض لأذى[72].

وأتسع نطاق توظيف الرفات في النواحي العسكرية أكثر مما وظفت للأغراض الأخرى، وكان لترديد نسبة انتصار الصليبيين في معركة ما إلى رفات القديسين والمتعلقات المقدسة له أثر أكبر في النفوس الأمر الذي يجعل من التوظيف العسكري للرفات يحتل المرتبة الأقوى والأكثر شيوعاً.

ولكن ثمة إشكالية في التوظيف العسكري للرفات كثيراً ما نطالعها بين سطور المصادر، حينما ينسب أي انتصار إلى قوة صليب الصلبوت أو رفات أحد القديسين، وبخاصة أن الصليب كان يتقدم اغلب المعارك التي خاضها ملك بيت المقدس حتى معركة حطين التي أسر فيها، وطالما انتصر الصليبيون نسبت النتيجة إلى قوة الصليب أو غيره من الرفات، بينما تختفي تلك الصبغة الدينية التي تغلف الرفات بالقوة حينما يهزم جيش الصليبيين[73]، غير أن تلك الصبغة الدينية كانت واحدة من رموز الكتابة – سواء الدينية أم التاريخية – في العصور الوسطي.

وقد ارتبط ظهور القوي الخارقة للرفات في مساعدة الجيوش الصليبية عقب ظهور مصطلح على تسميته بالإخفاقات الأيديولوجية لدي الصليبيين، وحينها تظهر معجزة ممثلة في الحربة أو الصليب أو رفات هذا الشهيد أو ذلك القديس أو ظهور شبح أحد الفرسان وما إلى ذلك كي يتحول بعدها الإخفاق إلى نجاح والهزيمة إلى انتصار[74]، وأكبر مثال على ذلك قصة الحربة المقدسة في أنطاكية خلال أحداث الحملة الصليبية الأولي، الجيش الصليبي من كبوته وتغلبه على جيش كربوغا المرابط خارج مدينة أنطاكية[75].

ويعود توظيف الرفات المقدسة عسكرياً إلى أوائل الدعوة للحملة الصليبية الأولي حينما كانت شارة الصليب كرمز للخلاص والفداء أحد أهم رموز تلك الحملة والدعوة إليها[76]، علاوة على حرص الصليبين على حمل رفات عض القديسين الشرقيين في أثناء تحركهم إلي بيت المقدس في الحملة الصليبية الأولي "...شعرنا أن القديس جرجس سيكون شفيعنا عند الرب، وسيكون قائدنا المخلص من خلال موطن إقامته"[77].

وحينما تحرك الملوك فيما بعد لقيادة الحملات الصليبية فيبدو أن بعضهم تبرك بالرفات المقدسة قبيل خروجهم من أوروبا مثلما فعل الملك لويس السابع في حملته على الشرق من زيارة رفات القديسين في القسطنطينية وتبركه بها[78]، وعلى ما فعل لويس التاسع الذي تبرك بقميص[79] المسيح – عليه السلام– قبيل تحركه إلي الشرق.

ومن جهة أخري كانت الإشارة إلي خطورة انتصار المسلمين على الصليبيين ونتيجة على المقدسات والرفات من أهم التوظيفات الناجمة عن الاحتكاكات العسكرية بين المسلمين والصليبيين[80]، ولعلنا نلمس هذه النبرة وارتفاعها مع عصر الملك عموري الأول ثم على صلاح الدين وانتصاراته

الكبرى، ناهيك عما حدث فيما بعد في العصر المملوكي حينما كانت المعاهدات التي تفاوض لأجلها المغول والصليبيين لكيفية التصدي للمسلمين تناقش أوضاع المقدسات والرفات والمتعلقات المقدسة(81)، وهذا يعني أن الصليبيين قد حاولوا الإفادة من مكانة الرفات في نفوس الأوروبيين لحثهم على تقديم المساعدة.

وقد خطف صليب الصلبوت الأضواء من كافة الرفات والمتعلقات وبخاصة في المجال العسكري بحيث بات وجوده علي رأس الجيش أو غيابه مبرراً لمشاركة كثيرين أو إعراضهم(82)، وقد كفل حمل الصليب وبقية الرفات في المعارك من وجهة نظر المؤرخين المعاصرين من الصليبيين الانتصار في المعارك التي خاضها الجيش الصليبي(83)، حينما كانوا يشيرون إلي وجود قوي روحية كانت تحارب إلي جانب الصليبيين ضد العداء، وبالرغم من منطقية حمل الصليب والرفات في مواجهة المسلمين بوصفهم أعداء للصليبيين فإن ملك بيت المقدس لم يتورع عن حمل الصليب ضد بعض الصليبيين على ما فعل الملك بلدوين بحمله الصليب ضد أمير طرابلس الذي جاهر بعصيان الملك(84)، وحمل الملك للصليب علي تلك الشاكلة كان له تفسير يصب في امتلاكه لعنصر من عناصر السيادة المعنوية ضد خصومه ممثلاً في صليب المسيح – عليه السلام ، وقد اختص ملك بيت المقدس بمرافقة الصليب في المواجهات العسكرية(85)،وفي حالة غياب الملك – سواء لأسره على ما حدث مع بلدوين الثاني أو لمرض الملك أو غيابه عن المملكة كما الحال في فترة عصر عموري الأول الذي غاب كثيراً في مصر – فقد تكفل من يمثله أو ينوب عنه بمرافقة الصليب(86)،بيد أن مرافقة الصليب للجيش وبخاصة إلى الأماكن البعيدة عن بيت المقدس مثل أنطاكية أو الرها كان يقابل بمعارضة شديدة من بطريرك بيت المقدس(87).

أما من تحمل مسئولية رفع الصليب إلى ميادين المعارك فبطريرك بين المقدس(88) بوصفه يشغل أسمي مكانة دينية بين الصليبيين في الشرق والمسئول عن كنيسة بيت المقدس والضريح المقدس، ناهيك عن كونه ممثل البابوية الديني في بيت المقدس والشرق(89).

وقد كفل حمل الملك للصليب وبخاصة في العقود الولي من الوجود الصليبي في بلاد الشام التفاف الصليبيين حول الملك، إذ يشير الأصفهاني إلى مجرد رفع الصليب وقت التعبئة كان كفيلاً بجمع أعداد غفيرة من الصليبيين وذلك تأهباً للقاء حطين 583هـ/1187م، ومنه أيضاً "...فكأنهم لما عرفوا إخراج هذا الصليب لم يتخلف أحد من يومهم العصيب..."(90)، ولكن سرعان ما تراجعت تلك الروح نتيجة لعدد من المتغيرات السياسية والعسكرية التي ألمت بالصليبيين في الشرق(91).

وفي المقابل عد غياب الصليب عن المعركة نذير شؤم على الصليبيين، وإيذاناً بهزيمة لا قبل لهم بها، في الوقت الذي حرص فيه بعض المؤرخين على ما فعل المؤرخ المجهول صاحب أعمال الفرنجة وفولشر أوف شارتر على عدم الإشارة إلي وجود الصليب في بعض المواجهات التي هزم فيها الجيش الصليبي(92)، وقد فسر تراجع الكيانات الصليبية في الشرق بعد معركة حطين واسترداد المسلمين لبيت

المقدس بوصفه نتيجة لفقدان الصليب"...وأخذ المسلمون صليبهم الأعظم...فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عليهم، وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك..."[93]، وأيضاً "...ولم يؤسر الملك حتى أخذ صليب الصلبوت... فهلكوا قتلاً وأسراً وملكوا قهراً وقسراً..."[94]، ولذا عد الأصفهاني استيلاء المسلمين على الصليب في معركة حطين 583هـ/1187م من أشد ما آلم الصليبيين وكسرهم على الأقل من الناحية المعنوية[95].

وقد يستشف من حرص الصليبيين في معاهداتهم مع المسلمين في الفترة التالية للحملة الصليبية الثالثة وحتى الحملة الصليبية السابعة على استعادة الصليب لخير دليل على إحساسهم بفقدان أحد أهم عوامل قوتهم في الشرق[96].

ووظفت رفات القديسين ومتعلقاتهم المقدسة في النواحي الدبلوماسية على نطاق محدود بعكس الحال في أوربا[97]،وبخاصة أن تفاوض الصليبيين لاستعادة الرفات كان بمثابة نقطة ضعف للمفاوض الصليبي. وبالرغم من ذلك فقد وظفت الرفات في عدة نواحي دبلوماسية، وقد ترتب على الاستماع لصوت العقل "...تصافي الزعماء بعضهم مع بعض ..."، وبالرغم من حمل ملك بيت المقدس الصليب في إخضاعه لبونز أمير طرابلس[98] فقد أعزي فولشر أوف شارتر إلي بركة الصليب تهدئة الأوضاع بين الطرفين[99].

بينما قدم فابري نصاً مهماً جاء عرضاً خلال حديثه عن الأحكام والأوامر التي ينبغي أن يقوم بها الحجاج في زيارتهم للأماكن المقدسة وبخاصة في كنيسة الضريح المقدس، وقد أورد أحد البنود التي نصت على السماح للحجاج بزيارة بيت المقدس على ما أشارت أغلب المصادر التي عالجت تاريخ تلك الفترة، بيد أن فابري أضاف توضيحاً تضمن منع كسر أي شيء من الأماكن المقدسة، وقد أسلفنا الإشارة إلى قيام الحجاج بتعمد كسر بعض الحجارة من قبة الصخرة بوصفها رفات مقدسة، ولا غرو أن سريان تأكيد مثل هذا البند- في الاتفاقات والمعاهدات- حتى زمن فابري في القرن الخامس عشر يؤكد أن المسلمين كانوا يتابعون ذلك باستمرار وأن متابعتهم تعكس تكرار عمليات الكسر[100].

وفي فترة متأخرة في العصر المملوكي فقد شملت المفاوضات التي استهلها الملك لويس التاسع مع خان المغول تعهد الأخير بحماية المقدسات المسيحية وعدم التعرض لها بأي صورة [101]. ولكن على جانب آخر كانت محاولات الصليبيين التفاوض مع المسلمين لاستعادة الرفات المقدسة من ناحية أو تضمين استعادة بعض الرفات في بعض المعاهدات الأخرى تصب دوماً في صالح الطرف الإسلامي وليس الطرف الصليبي، وبالنسبة للإشكالية الأولي فقد أورد روجر أوف وندوفر ما يفيد قيام صلاح الدين بجمع بعض الرفات في صناديق كبيرة لحرمان الصليبيين منها، وهنا فإن تدخل الصليبيين لاستعادة تلك الرفات كلفهم مبلغاً كبيراً نظير استعادتها[102].

وفي السياق ذاته الذي هدف إلى توظيف الرفات والمتعلقات في المفاوضات بين المسلمين والصليبيين فقد قدم العماد الأصفهاني نصاً مهماً يعود إلى مفاوضات صلح الرملة عام 1192م، والمعروف أن الصلح قد تضمن إتاحة الفرص للزيارة أمام الصليبيين إلى بيت المقدس، ناهيك عن طلب بعضهم توقير الصليب وتقديسه، وقد أوفي السلطان بما عاهد ريتشارد عليه، بيد أن الأخير حاول الإفادة من ذلك بمحاولة تقليل فرص الزيارة أمام كافة الصليبيين من خلال عدم السماح لأحد بالزيارة سوي من معه خطاب مباشر من ريتشارد، وحينما ناقش صلاح الدين ذلك الأمر مع مستشاريه فإنهم فطنوا إلى أن ريتشارد يهدف إلى خلق مشكلة لدي الصليبيين على حساب صلاح الدين، وهي أن يكون هو مانعهم عن الزيارة على الرغم من أن الصلح يسمح بها(103).

بينما ظل الصليبيون يسعون سعياً حثيثاً لاستعادة صليب الصلبوت من قبل صلاح الدين وخلفائه ولفترة طويلة فيما بعدن فحينما اشتد حصار الحملة الثالثة لمدينة عكا حدثت بعض المفاوضات بين صلاح الدين وبين قادة الحملة بهدف الصلح على عكا، على شروط أن يستعيدوا كافة البلاد وإطلاق الأسري، ولكنه عرض عليهم تسليم عكا وإطلاق الأسري فلم يقبلوا فحينها عرض عليهم استعادة صليبهم ولكن لم يتم تسليم الأمر أيضاً "...وسمح لهم برد صليب الصلبوت إليهم فانفصلوا عن الأمر ولم يفصلوا..."(104)، ثم أورد امبرويز وغيره أن المسلمين اقترحوا تسليم الصليب مقابل فك الحصار الذي فرضته الحملة الثالثة على مدينة عكا(105)، بيد أن ذلك لم يكلل بالنجاح أيضاً، وحينما سقطت عكا في أيديهم بعد قليل فإنهم اشترطوا لتأمين خروج القادة ضمن الشروط المعروفة أن يرد للصليبيين صليبهم(106).

وعلى ما يبدو فإن صلاح الدين لم يكن أمامه خيار آخر سوي الإذعان من أجل تخليص رجاله من الأسر وجهزه بالفعل مع المال والأسري لإجراء التبادل، وحينما سري إلى الصليبيين إشاعة مفادها أن الصليب قد بعث به إلي دار الخلافة فقد أصر رسلهم على ضرورة رؤية الصليب كي لا يكون في ذلك حيلة عليهم "... وظنوا أن صليب الصلبوت قد أرسل إلى دار الخلافة فليس له وجود، فسألوا إحضاره وهم شهود، فلما أحضر خروا له ساجدين وأقروا به شاهدين وعرفوا أن الشرط بالوفاء مقرون..."، ولكن ولأسباب كثيرة متداخلة لم يحدث التبادل وقام ريتشارد بقتل الأسري المسلمين على مرأى ومسمع من جيش صلاح الدين(107)، وحينما قرر صلاح الدين رد الأسري الصليبيين إلى دمشق، وأما الصليب فإنه أمر بأن يعاد "...إلى الخزانة لا للإعزاز بل للإهانة، فإن غيظ الكفار بحفظنا للصليب شديد والمصاب به عندهم على مر الجديدين جديد، وقد بذل فيه الروم ثم الكرج بذولاً، وأنفذوا بعد رسول رسولاً فما وجدوا قبولاً ولا صادفوا سولاً..."(108).

ولشدة ما آلم الصليبيين من فشلهم في مفاوضتهم مع المسلمين لاستعادة الصليب ولتبرير فعلتهم بقتل الأسري دون مبرر فقد طاب لامبرويز اتهام المسلمين بالمماطلة في إعادة الصليب لأنهم لم

يجدوه في الوقت الذي يؤكد بعض الحجاج الصليبيين أنهم رأوا الصليب لدي المسلمين، ولكن طاب لامبرويز اتهام صلاح الدين بترك أسراه تقتل في أيدي الصليبيين لا لشيء سوي لأنه كان يسعي لاستغلال الصليب للحصول على صلح أكثر موائمة(109).

وظلت مفاوضات الصليبيين للحصول على الصليب قائمة فيما بعد، وليس أدل على شدة حرص الفرنج على استرجاع الصليب من حالة الفرح الشعبي حينما أعلن مشروع زواج العادل من أخت ريتشارد وكان من شروط الزواج فداء الأسري من الجانبين واستعادة الصليبين للصليب، ولكن خاب ظنهم حينما فشل المشروع نتيجة لإصرار الصليبيين على ضرورة تنصر العادل وهنا رفض العرض برمته(110)، هذا في الوقت الذي تضمنت فيه أغلب بنود المعاهدات التي عقدت بين الأيوبيين والصليبيين بنداً يهدف إلى استعادة الصليب، من ذلك ما جاء في الصلح الذي استتبع الحملة الصليبية الخامسة التي قادها ملك المقدس حنا بريين "...وعرض عليهم إعادة الصليب الحقيقي الذي كان صلاح الدين قد استولي عليه... وأن يطلق سراح جميع الأسري..."(111)، بيد أنهم فشلوا في ذلك ولم يستعيدوا الصليب فيما بعد، ربما لأن العماد الأصفهاني كان أكثر حكمة وأبعد نظراً حينما قرر أن حرمان الصليبيين من صليبهم المقدس يحرمهم من مصدر قوتهم الروحية والمعنوية.

وعلي الصعيد الاقتصادي فإنه في ظل موارد الصليبيين الاقتصادية المحددة واعتمادهم شبه الدائم على الدعم الأوربي فإنه كان من المتوقع أن يسعي الصليبيون إلى توظيف كافة الموارد المتاحة للحصول على الأموال، وبالرغم من أن الصليبيين وظفوا الرفات والمتعلقات المقدسة لذلك الغرض فإن الأمر كان على نطاق ضيق ولم يكن يدر دخلاً منتظماً للمملكة والكيانات الصليبية الأخرى في الشرق، وإنما ارتبط ذلك بمواسم الحج إلى المزارات الدينية(121)، حينما جري العرف على أن تقدم بعض النذور في تابوت الرفات التي يقوم الحجاج بزيارتها، وبالرغم من عدم تحديد المبلغ من قبل المؤرخين المعاصرين فقد قدره فابري في فترة متأخرة بأنه يتراوح ما بين دوقية وأربع دوقيات "...وقبلنا الآثار المقدسة ووضعنا تقديماتنا من الذهب والفضة في التابوت، فقد وضع بعضنا أربع دوقيات، وبعض آخر ثلاثة وبعض دوقيتين، ووضع الشطر الأكبر ما لا يقل عن دوقية واحدة..."(113).

وقد حوت بيت المقدس وبقية الكيانات الصليبية الكثير من الرفات والمتعلقات المقدسة ناهيك عن المزارات المقدسة مثل كنيسة القيامة والضريح المقدس وقبة الصخرة وجبل الجلجثة والناصرة وبيت لحم وما إلى ذلك، بينما كانت الرفات كثيرة وروعي تأمينها خوفاً من سرقتها، ونقل بعضها إلي بيت المقدس وبيت لحم وغيرها من الأماكن التي سيطر عليها الجيش الصليبي في صدر الحروب الصليبية(114)، ولا ريب في أن كثرتها تعني الحصول على كثير من النذور والهدايا(115).

بينما وظفت القيمة الروحية لبعض الأواني المقدسة الحاوية للرفات لأغراض اقتصادية أخرى، كأن يقدم بعضها رهناً لحصول المملكة على بعض القروض(116)، أو أن تقع غنيمة حرب فتعرض

إحدى المدن التجارية مبلغاً ضخماً مقابلها على ما جري مع الجنوية الذين اشتروا أحد الآنية بمبلغ كبير للغاية ووضعوه في كنيستهم "...ووجدوا في ذلك المسجد وعاء لونه أخضر على شكل صحن، وقد أخذه الجنوبيون... من الزمرد... مقابل مبلغ كبير من المال وقدموه بمثابة هدية ثمينة لكنيستهم..."[117].

واعتاد رهبان بيت المقدس وغيرهم بيع بعض الرفات إلى الحجاج الأوروبيين وبخاصة قطع الصخور المنحوتة من قبة الصخرة ومن بعض الحجارة المقدسة"... فخاف بعض ملوكهم أن تفني فأمر بها ففرش فوقها حفظاً لها..."[118].

وقد تلهف الحجاج الغربيين للحصول على قطعة من خشب الصليب الحقيقي بأي ثمن[119]، أو سعي بعضهم للحصول على قطعة من أحد أبواب القدس التي كانت تساوي مبلغاً كبيراً،أما شراء الرفات أو سرقتها ونقلها فإنه كان من الأمور الشائعة وإن كنا قد تحدثنا عن نقلها في موضع سابق ، فضلاً عن بيع ما أطلق عليه حليب العذراء "... وهذا ناتج عن انه في أثناء إرضاع العذراء – عليها السلام – للسيد المسيح – عليه السلام – تساقطت نقطة من حليبها على الصخرة التي كانت تجلس عليها، وظلت تلك النقطة قائمة على الصخرة وظلت لازجة ترشح نقاطاً من الحليب الذي يُسارع الجميع لجمعه ثم عرضه في الغرب... "[120] ، ويُرجح أنه كان يُباع مرة في الشرق ومرة أخري ولكن أغلي في الغرب، ناهيك عن بيع الزيوت المقدسة المنبعثة من بعض الرفات[121] ، وما إلي ذلك من أشكال الاستغلال الاقتصادي الذي وقع ضحيته الحجاج الأوربيين الذين كانوا يسعون إلي الحصول علي الرفات والمتعلقات بأي ثمن.

وفي المقابل فقد تحمل الصليبيون من جهة أخري مسئولية دفع مبالغ طائلة لاسترداد الرفات المقدسة الأسيرة في أيدي المسلمين[122] . وبالرغم من أن الصليبيين في سعيهم لاستعادة المتعلقات والرفات من المسلمين تحملوا مبالغ كبيرة فإنهم من جهة أخري أفادوا من تلك الرفات بتوظيفها في الغرب فضلاً عن الرفات الأخرى التي لم يكلفهم الحصول عليها أية أعباء مالية.

ووظفت الرفات والمتعلقات المقدسة في الناحية الصحية حينما نُسب إلي قدراتها الشفاء ونُسب إلي شجرة البلوط أو السنديان التي جلس بقربها الخليل إبراهيم -عليه السلام- قدرات علاجية بحيث إذا حُمل منها الفارس قطعة فإنها تمنحه الثبات علي فرسه[123].

وعلاوة علي ذلك فقد وُظف أيضاً ما عُرف باسم حليب العذراء – ذاك الذي حُمل من الشرق وعُرض للبيع في كافة أنحاء أوروبا – توظيفاً طبياً نتيجة للترويج لقدرته العلاجية الفائقة، بينما نسب آخرون إلي الزيت المقدس الذي يرشح من تمثال للسيدة مريم العذراء قدرة فائقة علي عدم جنوح السفن أو تعرضها للغرق " ... و هو الزيت الذي يحمل منه الحجاج الذين يأتون إلي هناك من كل جزء من العالم قوارير صغيرة... "[124] ولضمان نجاح الترويج فإن المؤرخين نسبوا له قدرات كبيرة " ...وقد مسح

كثير من الناس أنفسهم به فلم يُعانوا بعد ذلك من أي مرض...ولم يتوقف هذا الزيت عن الصدور مطلقاً... "[125].

بينما استُخدمت بقايا الشموع استخداماً آخر حينما قام الحجاج بإضاءتها في الأماكن المقدسة بالشرق "...مدة ثم يقومون بإطفائها وأخذ ما تبقي منها إلي بلدانهم حيث جعلوا زوجاتهم يحملنها عندما يكن في فراش الولادة، علهن يلدن من دون مخاطر تبركاً بالمكان الذي جاءت منه وهو كنيسة الضريح المقدس .."، ولم يتوقف الأمر علي ذلك بل وصل إلي توظيف الصليبيين لأحد أبواب القدس الخشبية توظيفاً طبياً يمنح الشفاء لحامله من السكتة الدماغية والوباء " ...من يحمل قطعة صغيرة...سيكون في ذلك حماية له من السكتة الدماغية، أو الوقوع في المرض والوباء... "[126].

وفي نهاية القرن الخامس عشر صور فابري أن كلا من المسلمين والمسيحيين الشرقيين يُمجدون المكان الصخري الذي صُلب فيه المسيح ويؤكد أن المسلمين يتبركون به[127] ، وعن الصورة التي تحتويها كنيسة صيديانا والزيت الذي يرشح منها نسب فابري توافد المسلمين إليها "...من الأحواز المجاورة ويكون ذلك في أيام عيد سيدتنا في شهري آب وأيلول، فهناك يصلون ويتعبدون ويعملون النذور... "[128].

كما نسبوا إلي نبع في قرية عمواس الكثير "...يجري هنا نبع في مائه شفاء للناس، إذا اغتسلوا فيه زالت عنهم أوجاعهم، وتبرأ فيه الحيوانات الدنيا من كل ما تتعرض له من أمراض خاصة بها، وتقول الرواية في تفسير هذا الاعتقاد إن المسيح ذاته تجلي في أثناء هذا السير لتلاميذه عند هذا النبع وغسل بنفسه أقدامهم في مياهه التي أصبحت منذ ذلك الحين برداً لكل الأسقام "[129].

وعلي صعيد آخر فقد وُظفت الرفات في القسم بين المتعاهدين، فمنذ الوهلة الأولي وُظفت كافة الرفات المقدسة والأكثر قيمة خلال يمين القسم المشهور الذي بذله أغلب قادة الحملة الصليبية للإمبراطور ألكسيوس الأول كومنينوس Comnenus Alexius I كي يُعيدوا له المدن والقلاع التي سبق وكانت من أملاك الإمبراطورية البيزنطية في حالة استعادة الحملة الصليبية الأولي لها "[130]، بل وأقسم كل من بوهيمند الأول وألكسيوس كومنينوس علي الرفات المقدسة خلال اتفاق ديفول الذي عُقد بينهما عام 1108م علي احترام العهود والمواثيق وعدم محاربة أحدهم الآخر "...وبعد أن تمت مناقشة معاهدة بينهما... أقسم الإمبراطور علي أغلي الذخائر المقدسة ووعد بوهيمند بأن الحجاج الذين ورد ذكرهم كثيراً سوف يكونون من ذلك اليوم فصاعداً آمنين سالمين، سواء في البر أو في البحر علي مدي امتداد سلطة الإمبراطور وأن أحداً منهم لن يُمسك أو تسوء معاملته، وأقسم بوهيمند بدوره علي أن يحافظ علي السلام والإخلاص للإمبراطور في كل الأمور "[131].

وعلاوة علي ذلك فقد استخدم القسم علي الرفات والقربان المقدس للتعاهد بين الصليبيين علي عدم الفرار من أرض المعركة وهم يواجهون المسلمين، ولعل أبرز مثل علي ذلك تعاهد الصليبيين

المحاصرين في أنطاكية علي عدم الفرار نتيجة للذعر الذي أصاب الجميع[(132)] " ...حينذاك أمر أسقف بوي بإحضار الأناجيل والصليب ليُقسم ذلك القسيس علي صدق ما قاله، وفي تلك الساعة اتفق زعماؤنا أن يُقسموا بسر القربان المقدس ألا يحاول أحدهم...أن يفر أو يهرب من الموت أو إنقاذ حياته "[(133)]، وهو القسم ذاته الذي استخدمه الملك ريتشارد قلب الأسد في ظروف مُشابهة للكشف عن الذين ارتاب فيهم من أتباعه " ولأجل ذلك أيضاً ألزم ريتشارد رجاله وقادته بالقسم علي صدق النية لدي مهاجمة صلاح الدين[(134)].

وكثيراً ما ارتفعت الحالة المعنوية لدي الصليبيين عقب إلزامهم بالقسم علي الصليب[(135)] وقد دارت هذه الأحداث عند عسقلان، وهنا فقد حل الصليب محل الإنجيل في القسم لدي الخطوب المهمة التي تسبق مواجهة كبري أمام المسلمين، ويُشير السرياني إلي فرار صلاح الدين نتيجة لهذه الروح.

أما من ناحية المسلمين فإنهم كانوا علي علم بتوقير الرفات والمتعلقات من قبل الصليبيين فجعلوهم يُقسمون عليها لضمان الوفاء بالعهود " وربما لأجل ذلك عُد من يخالف قسمه من الصليبيين علي الرفات غير أهل لمحالفته أو مهادنته من قبل المسلمين "[(136)].

الحواشي

1- اتخذ تقديس الرفات بعداً أوسع في غرب أوربا ومن ثم عصر الحروب الصليبية، وبالرغم من تحريم القانون الروماني المساس برفات الموتى وتداولها فقد حرصت المجامع الكنسية علي توضيح مفهوم عقيدة الرفات التي تدرجت من المفهوم الشعبي الذي يرى فيها قوة القديس نفسه وكأنه يحيا على الأرض كما أقر مجمع نقية عام 787م إلي تقديسها وليس عبادتها على ما أقر مجمع ترنت الذي عقد على فترات متقطعة ما بين عامي 1045، 1063م. وثمة تعريف وظيفي للرفات والمتعلقات المقدسة ممثل في أنها "...القناة الرئيسة التي من خلالها تصبح القوى الروحية الخارقة متاحة للإنسان العادي، وبالرغم من أن الرجل العادي يرى هذه المتعلقات ويتداولها فإنها لا تنتمي إلي هذا العالم الفاني، بل هي جزء من عالم الخلود وفي يوم البعث سوف يستعيدها القديسون وتصبح جزءاً من الجنة". انظر:

الأمين عبد الحميد أبو سعده: "التوظيف السياسي لرفات القديسين ومتعلقاتهم المقدسة في أوربا العصور الوسطى، مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة، عدد 35، أغسطس 2004م، ص 313-314.

2- http://www.the- Thomas, The Cult of the Saints, At:; Wilson, Steven (ed), Saints and orb.net/encyclop/religion/hagiography/cult.htn Their Cults, Cambridge University Press1983; Reinburg, Virginia. "Remembering the Saints," in Memory in the Middle Ages, (eds.), Nancy Netzer and Virginia Reinburg (Chestnut Hill, MA, (1995), pp. 18-33.

3- Roger of Wendover, Flowers History, vol. II, London, pp. 210-211.

4- من الرفات والمتعلقات والمقدسة التي حواها الضريح المقدس منذ الأيام الأولى للمسيحية: صليب الصلبوت مع بقية أدوات آلام المسيح – عليه السلام- التي عثرت عليها هيلانة والدة الإمبراطور قنسطنطين العظيم، فضلاً عن السلسلة التي لفت حول عنق المسيح – عليه السلام- وتبركاً بها فقد

اعتاد الحجاج وضعها حول رقابهم عند زيارتهم للكنيسة، علاوة على الكأس الكبير الذي تشارك به المسيح – عليه السلام – مع حوارييه في العشاء الأخير والمنديل وما إلي ذلك . انظر: جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، ترجمة: سهيل زكار (الموسوعة الشامية، ج 38 (2)، دمشق، 2000م)، ص 445-446.

5- Burke, (G.K.), The justifications for Relic thefts in the Middle Ages, A Thesis Submitted to the Faculty of Miami University in partial fulfillment of the requirements for the degree of Master of Arts, Department of Comparative Religion, Oxford, 2004, pp.8.9

وفي معنى رفات الاتصال يقول فيلكس فابرى:"... وهكذا أخذت كل من المجوهرات التي عهد بها إلي في أولم من قبل الأعزاء على ومجوهرات رفاقي من موالي الفرسان، ووضعت كل قطعة منهم في التابوت حيث لمست بهم الرأس المقدس للعذراء النبيلة...". انظر: جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، ج38 (2)، ص .1408

6- Fichtenau, Heinrich, Living in the Tenth Century: Mentalities and Social Orders, trans. Patrick i. Geary, University of Chicago Press, * 1991, p.329.

7- Thomas H., The Cult of the Saints and Their Relics,
Hunter College and the Graduate Center, CUNY. At, http://www.the-orb.net/encyclop/religion/hagiography/cult.htm.

8- Fichtenau, living in the Tenth Century, p. 328.

9- ريمون داجيل: تاريخ الفرنجة الذين استولوا على القدس، ترجمة: سهيل زكار (الموسوعة الشامية، ج6، دمشق، 1995م)، ص259-269؛ مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمه وقدم له وعلق عليه: حسن حبشي، القاهرة، ص82-94؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، ترجمة: حسن

حبشي، ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1995م، ص396-397، ج2، ص54-56.

10- كثرت المزارات التي توسم فيها الحجاج حدوث المعجزات كحال الرفات تماماً منها على سبيل المثال: قطعة عمود موجودة في إحدى الكوى أو الشرفات، تستمد قيمتها من ربط المسيح – عليه السلام- إليه وجلده عليه، ويتبرك به الحجاج حينما يزورون كنيسة الضريح المقدس ويحرصون على لمسها. ومن جهة أخرى فقد أشار الأصفهاني إلي كنيسة القيامة بصفتها منجماً للرفات المقدسة لدى الصليبيين"... وفيها صور الحواريين في حوارهم، والأحبار في أخبارهم، والراهابين في صوامعهم والأقساء في مجامعهم... ومثال السيد والسيدة، والهيكل والمولد والمائدة والحوت... قالوا: وفيها صلب المسيح – عليه السلام- وقرب الذبيح، وتجسد اللاهوت، وتأله الناسوت، واستقام التركيب، وقام الصليب، ونزل النور وزل اليجور...".

أما عن المكان الذي طبع فيه قدمي المسيح – عليه السلام- فإنه مقدس للغاية لدى الحجاج ويقبلونه وقت زيارتهم له، وكانت كنيسة القيامة مقصداً للحجاج الجدد، ولم يقل الموضع الذي حوي فراش السيد المسيح – عليه السلام – تحت سدة الكنيسة أهمية وإنما كان أحد أهم أماكن التبرك من قبل الحجاج، وكانت بقايا بعض الرفات في أحد الكهوف تعد مزاراً مهماً لبعض الرحالة.

انظر: ريمون داجيل: تاريخ الفرنجة، ج6، ص259-269؛ جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، ج38(1)، ص 24.، ج38 (2)، ص471- 474؛ الأصفهاني (محمد بن صفي الدين ت:597هـ): الفتح القسي في الفتح القدسي، دار المنار، 2004م، ص67، 249؛ الراهب دانيال الروسي: رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب في الأراضي المقدسة، ترجمة: سهيل زكار (الموسوعة الشامية، ج31، دمشق، 1998م)، ص295. وأيضاً:

Moufazzal Ibn Abil-Fazail, Histoire des Sultan Mamlouks, Tome III, p. 193.

11- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز ألعريني، ج1، 1969م، ص71؛ على السيد على: القدس في العصر المملوكي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1986م، ص208-.218

12- منال محمد السيد: "الحربة المقدسة بين الحقيقة والخيال"، دورية العلوم الإنسانية، كلية الآداب جامعة بني سويف، عدد16، 2009م، ص171-192.

13- دانيال الراهب: الرحلة، ج31، ص.295

14- أشار فابري إلي أن انتزاع صليب الصلبوت من البيزنطيين أفقدهم قوتهم فترنحت كنيستهم وغدت أكثر غرقاً. انظر: جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، ج38 (2)، ص 1104,472. وأيضاً:

Roger of Wendover, Flowers of History, II, pp.60-62.

15- جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، ج38 (2)، ص612.

سخر فابري من المسيحيين الشرقيين – ومن يقلدهم من المسلمين- الذين يقطعون بعض الحجارة من المكان الذي عثر فيه على الصليب ووضعها في الماء وشربه وهذا كفيل بشفائهم من أي مرض، أو حلاقة شعرهم ووضعه بتلك المنطقة كي يتم الشفاء، ويعد فابري هذه العادات باطلة لا أساس لها. انظر: جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، ج38 (2)، ص 485.

16- قال فابري عن ذلك الحقل "... الذي صنع آدم منه" وقال أيضاً إن بعض الحجاج يأخذون بعض الصلصال"... وبعض الحصا من هذه الأرض لتكون آثاراً مقدسة". انظر: جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، ج38 (2)، ص482.

17- أشار ثيودريك إلي النار المقدسة وعن كيفية استقبال رجال الدين في الشرق لها، وفي أيديهم صلبان بها قطع خشب من الصليب المقدس. انظر: ثيودريك: رحلة ثيودريك، ترجمة: سهيل زكار (الموسوعة الشامية، ج34، ق1، دمشق، 1998م، ص322.

18-Odo of Deuil, La Croisade de Louis VII roi de France, IV, ed. Henri Waquet, Documents relatifs a I;histoire des croisades, Vol 3, (Paris,1949),pp.44-46, translated by James Brundage, The Crusades: A Documentary History, (Milwaukee, WI: Marquette University Press,1962),pp.109-111.

19- أخذت القديسة هيلانة معلفاً خشبياً ونقلته إلي القسطنطينية ومنها إلي كنيسة اللاتيران في روما، ويعلل فابري هذا النقل بأنه لم يكن سرقة وإنما قصدت هيلانة جعل الأماكن الأخرى مبجلة أيضاً بسبب الرفات المقدسة المأخوذة من بيت لحم، حيث وزعت هذه الرفات في الغرب الأوربي وكانت تعرض كل سبع سنوات حتى عام 1487م. راجع: جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، ج38 (2)، ص688، 720-721.

20- كان يحدث أحياناً العكس، بأن يتم استمالة البيزنطيين بإهدائهم للرفات والأدوات الثمينة كسباً لودهم على ما حدث في أثناء الحصار البيزنطي الصليبي لمدينة شيزر عام 532هـ/1138م"... وأرسلوا (أبني منقذ أمراء شيزر) له الهدايا وأواني ذهبية وفضية مختصة بالسر المقدس وصلبان من الذهب حصلوا عليها من انتصاراتهم على الأباطرة، واحتفظوا بها منذ زمن آبائهم، وغادر الإمبراطور شيزر..." انظر: متى الرهاوي: تاريخ متى الرهاوى، ترجمة: سهيل زكار (الموسوعة الشامية،ج5، دمشق، 1995م)، ص60.

21- الضمير عائد على شارل ملك الألمان سنة 776م.

22- ضمير المنح عائد على إمبراطور القسطنطينية في أثناء عودة شارل من القدس وإقراره الأمور بين المسلمين و المسيحيين.

23- جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، ج38 (1)، ص 1070-.1071

24- عن نقل رفات الشرق إلي القسطنطينية انظر أيضاً: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج4، ص143-144؛ بورشارد من جبل صهيون: وصف الأرض المقدسة، ترجمة: سعيد البيشاوي، عمان، 1995، ص.140

25-أشار فابري إلي تلك الأماكن تفصيلا بقوله:"... ففي البندقية في جزيرة كورانو حوالي مائة جسد من أجساد الأبرياء في قبر واحد، وكنت قد رأيت في الدير الدومينيكاني في نورمبرج جسداً كاملاً لأحد الأبرياء، ويمتلكون في دير الدومينيكان في ستراسبورغ أيضاً واحداً من الأجساد الكاملة، ويمتلكون في بازل في دير الدومينيكان هناك يداً واحدة وعدة مفاصل عائدة لهم في وعاء قربان مقدس وثمين، ويوجد في دير الدومينيكان في أولم قميص صغير ملوث بالدم ومخروق بضربات سيف". انظر: جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، ج38 (2)، ص .694

26- قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، ط1، دار عين، القاهرة، 1990م، ص25-.26

26- زابوروف: الصليبيون في الشرق، ترجمة: إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو، 1986م، ص46-48؛ قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، دار عين، القاهرة، 1993م، ص18-.26

27- الضمير عائد على أمير أوربي زار القدس قبيل الحروب الصليبية ربما عام 1039م.

28- دانيال الراهب: الرحلة، ج31، ص332-333. وأيضاً: تاريخ أسرة بلانتجنت، ترجمة: سهيل زكار (الموسوعة الشامية، ج30، دمشق، 1998م)، ص22

29- ابن الأثير (على بن محمد بن عبد الكريم الجزري 630هـ): الكامل في التاريخ، ج10، دار ت: الكتب العلمية، لبنان، 1987م، ص158.

30- يشير ريمون داجيل إلي حمل قادة الحملة الصليبية الأولى رفات مجهولة معهم إلي القدس"... وسألنا الرب الذي جعل هذه الآثار مقدسة أن يحددها لنا لتكون رفيقاً لنا وعوناً، وسيكون هؤلاء القديسيون مرتبطين بنا... وهكذا يربطوننا بالرب، وأتينا في الصباح التالي بصحبة بطرس ديزيديريوس إلي مكان آثار القديسين وحسبما روي من قبل تماماً وجدنا بقايا القديس كيبريان والقديس أوميخيوس والقديس ليونتيوس والقديس يوحنا ذهبي الفم، كما وجدنا هناك أيضاً خزانة بها آثار لم يتعرف عليها الكاهن، وعندما سألنا السكان المحليين اختلفوا ف تعريفها، فقال بعضهم: إنها للقديس مركوريوس، بينما ذكر آخرون أسماء قديسين آخرين، وبغض النظر عن غموض أمرها لقد أراد ديزيديريوس جمعها ووضعها مع الآثار الأخرى". انظر:ريمون داجيل: تاريخ الفرنجة، ج6، ص.287

31- Burke, The justifications for Relic thefts, pp. 8-9

32- تاريخ أسرة بلانتجنت، ج30، ص.22

33- الأمين أبو سعدة: توظيف رفات القديسين، ص429، وأيضاً:

William of Malmesbury, Gesta Pontificum Anglorum (History of the English Bishops), RS., vol.52, p.398; Matthew of Paris, English History, trans. J. A. Giles, (London, 1852), Vol.ll, pp. 239-242.

34- http://www.the- Thomas, The Cult of the Saints, At: -. See also: Brown, (P.), The CULT//orb.net/encvclop/religion/hagiographv/cu1t.htmof the Saints: Its Rise and Function in Latin Christianity, University of Chicago Press, 1981.

35- Roger of Wendover, Flowers of History, II, pp. 109-110

36- Roger of Wendover, Flowers of History, II, pp,60-62,109-110,210-211,341, 410-416.

وأيضاً: جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، ج38 (2)، ص 472.

37- جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، ج38 (1)، ص 1408.

38- Guibert's Treatise on Relics, bk.1, chap. I, col. 614, From C.G. Coulton, (ed.), Life in the Middle Ages, (New York: Macmillan, c1910), Vol l,pp 15-22.

39- Pope Innocent III, Ep136, Patrologia Latina 215,669-702, translated by James Brundage, The Crusades: A Documentary History, (Milwaukee, Wl: Marquette University Press, 1962), pp.208-209 . Choniates, N., 0 City of Byzantium: Annales of Niketas Choniates, trans, by Harry I. Magoulias, (Detroit,1984), pp15-16.

40- Wilson, (ed.). Saints and Their Cults, pp. 18-33.

41-Lateran Councils, Introduction and translation taken from Decrees of the Ecumenical Councils, (ed.), Norman P. Tanner, http://mb-soft.com/believe/indexaz.html.

كثرت الرفات في أوربا ونمت عبادتها بسرعة كبيرة بحيث أنه بحلول عام 1274م كان ممنوعاً تبجيل أي رفات أو متعلقات مقدسة دون موافقة البابا، وقد أكد توماس الأكويني Tommaso D'aquino (1225-1274م) أهمية الآثار باعتبارها أحد مظاهر الربوبية، وأكد عقيدة الشفاعة بالقديسين وعد الرفات تأكيداً لوعد قيامه في المستقبل. انظر:

Colin Blakemore and Shelia Jennett, "Relics", at: The Oxford Companion to the Body, 2001 , Retrieved October 22, 2011 from Encyclopedia.com: http://www.encyclopedia.com/doc/15128-relics.html.

42- Stevenson (J.), (ed.), De Expugatione Terrae Sanctae per Saladinum9 [The Capture of the Holy Land by Saladin], Rolls Series, (London,

1875), trans, by Brundage (J.), The Crusades: A Documentary History, (Milwaukee, Wl: Marquette University Press, 1962, pp153-159

43- Roger of Wendover, Flowers of History, II, pp.109-110.

44- Roger of Wendover, Flowers of History, II, pp419-420.

وأيضاً: أوليفر اوف بادربورن: الاستيلاء على دمياط، ترجمة: سهيل زكار (الموسوعة الشامية، ج33، دمشق، 1998م)، ص59، 63، 64.

45- جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، ج38 (1)، ص1145.

46- جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، ج38 (2)، ص535-536.

ثمة حالات خاصة قليلة لم يقف الباحث على كثير منها تمثلت في قيام المسلمين بإهداء بعض الرفات إلي المسحيين ولكن من المحليين، حينما منح قلج أرسلان – حاكم ملطية – ميخائيل السرياني وغيره علبة من الذهب المرصع فيها عظام القديس بطرس رأس الرسل"... وبقينا في ملطية شهراً كان فيه كل يوم يرسل لنا الهدايا..."، فوضعوا ذلك في دير مار برصوم وحينما احترق الدير فقد أشار المؤرخ إلي حدوث معجزة كانت الرفات سبباً في حدوثها. انظر: ميخائيل السرياني: تاريخ ميخائيل السرياني، ترجمة: سهيل زكار (الموسوعة الشامية، ج5، دمشق، 1995م)، ص287-288

47- على السيد على: القدس في العصر المملوكي، ص187-.239

48- انظر في ذلك: يوحنا فورزبورج: وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ترجمة: سعيد البيشاوي، عمان 1997م، ص42-49، 59، 70، 71، 79، 84-85، 93، 103؛ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص104، 136-160، 154-155؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج1، ص97، ج2، ص34-35، 79-84، 96، 110-111، 416؛ جاك دي فيتري: تاريخ بيت المقدس، ترجمة: سعيد البيشاوي، دار الشروق، 1990م، ص32-39، 47-55، 64-68، 71-.85

49- صيدنايا: مدينة تابعة لدمشق، وتعد واحدة من أعرق المدن المسيحية في الشرق بعد القدس ويعني اسمها سيدتنا في اللغة الآرامية، وتقع على ارتفاع 1450متر عن سطح البحر، وهي مدينة تشتهر بجمال طبيعتها ومقدساتها المسيحية المشهورة، وتعود إلي عصور قديمة وفيها الكثير من الآثار أهمها الأديرة والمقدسات المسيحية وفيها أحد أهم الأديرة المسيحية في العالم وهو دير السيدة، وقد بناه الإمبراطور البيزنطي جستنيان. انظر:

http://ar.wikipedia.org/wiki.

50- رواية عن الأرض المقدسة كتبت في حوالي عام 1350م، ترجمة: سهيل زكار (الموسوعة الشامية، ج38 (1)، دمشق، 2000م)، ص,46

51- إرنول: حولية إرنول، ترجمة: سهيل زكار (الموسوعة الشامية، ج37، دمشق، 1999م)، ص.121

52- يشير د.علي السيد إلي إجبار الحجاج خلال العصر المملوكي على تقديم كثير من الرسوم سواء للمسلمين أم للمسيحيين في الأراضي المقدسة وبيت لحم والخليل وبخاصة إلي ناظر كنيسة القيامة والحراس الذين يأتمرون بأمره. انظر: على السيد: القدس في العصر المملوكي، ص217-.218

53- Roger of Wendover, Flowers of History, II, pp. 210-211

54- ذكرت هذه القصة في موضع آخر ولكن بتفاصيل مغايرة، وإن كان الهدف من القصة واضح للغاية وهو حث غالبية الأوربيين على القدوم إلي الشرق وبخاصة إلي موضوع الزيت المقدس الذي يرشح من صورة العذراء لما فيه من قدرات خارقة قد تؤدي – على وصف سوخم وغيره – إلي مقاومة السفن للعواصف إذا ما وضع فيها. انظر: لودلف فون سوخم: وصف الأرض المقدسة، ترجمة: سهيل زكار (الموسوعة الشامية، ج37، دمشق، 2000م)، ص409-412.

وقد استخدمت الرفات في أوربا ووظفت للترويج لأماكن بعينها لجلب الازدهار للمكان أو لرفع مكانته على ما حد من نقل رفات القديس أندراوس إلي القسطنطينية، أو اعتبار الرفات حامية لبعض المدن على غرار حماية القديس مرقص للبندقية. انظر: الأمين أبو سعدة: رفات القديسين، ص416-423.

وأيضاً:

Roger of Wendover, Flowers of History, II, pp. 210-211.

55- August C., The First Crusade: The Accounts of Eyewitnesses and Participants, (Princeton: 1921) pp. 36-40, Amadi, Chronique D'amadi, Publiees par De Mas
Latrie, (Paris, 1861),p58; Bongars, Gesta Dei per Francos,1, pp. 382, trans in Oliver J. Thatcher, and Edgar Holmes McNeal, eds., A Source Book for Medieval History, (New York: Scribners, 1905),513-17. See also: Nicolle (D.), Hattin 1187 Saladin Greatest Victory, (Oxford, 2005); Munro (D.), "Urban and the Crusaders", Translations and Reprints from the Original Sources of European History, Vol. 1:2, (University of Pennsylvania, 1895) pp.5-8.

وأيضاً: فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي في الشرق العربي (الاستيطان الصليبي في فلسطين) ترجمة: قاسم عبده قاسم، منشورات ذات السلاسل، الكويت، 1413هـ/1993م، ص94-95، 149؛ جاك دي فيتري: تاريخ بيت المقدس، ص32-39، 47-55، 64-68، 71-85.

56- أشار متى الرهاوي في ذلك المعنى مع مبالغة شديدة إلي مهاجمة أمير حلب أحد الأديرة وانتزاعه لمقتنياتها المقدسة من بينها بعض الرفات والمتعلقات"... ثم غزوا أراضي الدوق وأخذوا الأسرى ثم ذهبوا إلي دير القديس سمعان وهو دير إغريقي مشهور ونهبوه وأخذوا من الذهب والفضة والأموال وكل الأشياء الثمينة، والكتب وصحن الخبز المقدس (صحن الجسر) وكؤوس القربان والعشاء الرباني والصلبان والمباخر وتماثيل من الذهب والفضة وملابس الكهنة الرسمية الثمينة، ونهبوا الرهبان وأخذوهم جميعاً أسرى إلي

حلب وقد قتل أكثر من عشرة آلاف إفرنجي عند الهزيمة التي حلت بهم في حارم...". انظر: متى الرهاوي: تاريخ متى الرهاوي، ج5، ص86.

57- عن مراسلات عموري إلي الغرب ودعايته السيئة ضد المسلمين انظر:

Amalrici, Hierosolymorum Regis, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.36-37; Amalrici, Regis Hierosolymorum, ad Ludovicum, in RHGF, t XVI, pp37-38; Amalrici, Regis Hierusalem, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.59-60; Amalrici, Hierusalem Regis, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, p.157; Amalrici, Regis Hierusalem, ad Henricum, in RHGF, t. XVI. Pp.187-188.

58- Itinerarium Peregrinorum et Gesta Regis Ricardi ed. William Stubbs, Rolls Series, (London: Longmans, 1864)IV،2’4(pp.240-41-243), translated by James Brundage, The Crusades: A Documentary History, (Milwaukee, Wl: Marquette University Press, 1962), pp. 183-184.

59- مجهول: تتمة كتاب وليم الصوري المنسوب خطأ إلي روتلان، ترجمة: د.أسامة زكي زيد، الإسكندرية، 1989م، ص75-74. وأيضاً: رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص372؛ قاسم عبده قاسم وعلى السيد على: الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري، دار عين، القاهرة، 1995، ص100.

Painter (Sidney), The Crusade of Theobald of Champagne and Richard of Cornwall, 1239-1241",in Setton, A History of the Crusades, vol.2,p.474.

60 -Roger of Wendover, Flowers of History, II, pp.i 60-62.

61- عن المراسلات الأخرى التي شوهت صورة المسلمين قبيل حطين وبعدها انظر: الأصفهاني: الفتح القسي، ص64؛ تاريخ أسرة بلانتجنت، ج30، ص206,233. وأيضاً:

Letter from the East to Master of the Hospitalers, 1187, in http://www.shsu.edu/~his_ncp/Cruslet.html; Letter of Frederic, I To Leopold of Austria 1189, http://www.shsu.edu/his_ncp/Cnjslet.html; Letter of Sibylla, Ex- Queen of Jerusalem to Frederic I, 1189, http://www.shsu.edu/[M]his_ncp/Cruslet.html; Roger of Wendover, Flowers of History, vol. II, pp.71-72; Prutz, Kulturgeschichte der Kreuzzuge, (Berlin, 1883), p.72. See also: Keder, (8.2), European Approaches towards the Muslims, (Princeton, 1984), pp.56-70: Munro, (D.), "The Western Attitude toward Islam during the Period of the Crusaders",Speculum,Vol.6,No.3(Jul.,1931)pp.329- 330,337-338.

62-Roger of Wendover, Flowers of History, II, pp.109-110.

63- جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته،ج38 (1)، ص1145، ج38 (2)، ص445.

تسبق إشارات تعمد التشويه وإساءة الظن بل والترويج لذلك عصر الحروب الصليبية بكثير، بيد أنه هناك بعض المؤرخين الصليبيين الذين أقروا بمعاملة المسلمين للمقدسات المسيحية بإجلال ووقار"... ولا يدخل المسلمون إلي هذا الهيكل إلا بعد أن يكونوا قد طهروا أنفسهم بالوضوء، ثم يقتربون منه بوقار ولياقة، ليس بشكل حاشد بل يمشي كل إنسان لوحده، وكأنه سيد عظيم، ولا يتكلم أحدهم مع الآخر ولا يجلبون الأطفال أو الكلاب معهم، وبذلك لا ينزعج إنسان في أثناء صلاته..."، ولعل النصوص الدالة على ذلك والمؤيدة له كثيرة ولكن لا مجال لسردها، ولذا فإننا نرى فيما يسوقه أغلبهم بعيد عن الواقع وأن ما يرددونه من ترويج ودعاية سيئة لم يقتصد به سوي استشارة الغرب للمساعدة لا أكثر.

انظر: انظر: جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته،ج38 (1)، ص1042. وأيضاً:

Roger of Wendover, Flowers of History, vol. II, pp.71-72; Prutz, Kulturgeschichte der KreuzzUge, p.72. See also: Keder, (B.Z), European

Approaches towards the Muslims, pp56-7; Munro, The Western Attitude, pp.329-330,337-338.

64- انظر: امبرويز: صليبية ريتشارد قلب الأسد، ترجمة: سهيل زكار (الموسوعة الشامية، ج32، دمشق، 1998م)، ص329-330؛ جاك دي فيتري: تاريخ بيت المقدس، ص81.

65- الأصفهاني: الفتح القسي، ص172,183.

66- متى الباريسي: التاريخ الكبير، ترجمة: سهيل زكار (الموسوعة الشامية،ج5، دمشق، 1998م) ج5، ص1882.

67-فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص277.

68- حينما انسحب الماركيز كونراد دي مونتفرات إلي صور أرسلت له أكثر من سفارة للعودة إلي معسكر الحملة الثالثة وبخاصة عقب رحيل الملك فليب أغسطس، وقد رفض الماركيز العودة لعدة أسباب كان من بينها رفضه التنازل عن نصيبه في الأسرى إلا على شرط وهو تقسيم الصليب المقدس كي يأخذ نصيبه منه، وقد وصف امبرويز طلب الماركيز بالوقاحة. انظر: امبرويز: صليبية ريتشارد قلب الأسد، ج32، ص340-.341

69- فولشر أوف شارتر: الوجود، ص277-287، 296-.298

70- فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص274-287، 296-298، 315؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج2، ص356-357.

71- جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته،ج38 (2)، ص461.

72- فورزبورج: وصف الأراضي المقدسة، ص83، 91-.93

73- انظر: مجهول: أعمال الفرنجة، ص61-63؛ فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص129-130، 140، 196-273، 197، 213، 205، 270-273، 280-287، جـــــاك دي فيتري: تاريخ بيت المقدس، ص26.

74- قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص18-20، 23-26؛ قاسم عبده قاسم: الخليفة الأيديولوجية، 1990م، ص15-35، 49-51؛ عبد الله الربيعي: "الدوافع الدينية للحركة الصليبية"، ضمن ندوة الإطار التاريخي للحركة الصليبية، اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، 1996م، ص79-122.

75- منال محمد السيد: الحربة المقدسة، ص171-192.

76-Urban and the Crusaders", pp.7-8; August, The First Crusade, pp.28-30.

استخدم الصليبيون شارة الصليب بوصفها أسهل وأسرع الطرق للدلالة على المهمة التي سوف يقومون بها، ونسب المؤرخون إلي حمل الصليبيين لها كثير من الانتصارات التي حسبت لهم"... فأعلن الفرنجة أنه يجب على كل المسيحيين داخل البلدة أن يلبسوا السلاح ويضعوا إشارة الصليب، وبعدها هجموا كالأسود، وقفزوا من القلعة إلي البلدة وهاجموها كالجزارين فذبحوا جميع المسلمين الصغار والكبار حتى امتلأت المدينة بأشلاء القتلى الألوف لا بل عشرات الألوف...". وقد وقعت تلك الأحداث في الحملة الصليبية الأولى ونسبت انتصارات أخرى كثيرة إلي حمل أفراد الجيش الصليبي للشارة المقدسة. متى الرهاوي: تاريخ متى الرهاوي، ج5، ص29.

77- ريمون داجيل: تاريخ الفرنجة، ج6، ص 240، 281.

78- Odo of Deuil, La Croisade de Louis VII, pp. 109-111.

79-"ولما صلب الجنود يسوع أخذوا ثيابه وقسموها أربع حصص، لكل جندي حصة، وأخذوا قميصه أيضاً وكان قطعة واحدة لا خياطة بها، منسوجة كلها من أعلى إلي أسفل. فقال بعضهم لبعض: لا

نشق هذا القميص، بل نقترع عليه، فنرى لمن يكون. فتم قول الكتاب: تقاسموا ثيابي وعلى قميص اقترعوا، وهذا ما فعله الجنود" (يوحنا 19: 23-24).

80- مجهول: أعمال الفرنجة، ص39-6، 40-63، 110-111؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ2، ص362- 264.

81- متى البارسي: التاريخ الكبير، جـ5، ص.1882

82- ليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ2، ص362- .264

83- فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص129-130، 140، 196- 273، 197-284، 280-287؛ ثيودريك: رحلة ثيودريك، جـ34، ق1، ص.323

84_ نبذ الأمير بونز (1112- 1137) طاعة الملك بلدوين الثاني عام 1122م/516هـ رافضاً تأدية الخدمة الملكية إليه طبقاً ليمين الولاء الذي بذله للملك، فجمع الأخير قوي مملكته لمحو العار الذي ألحقه به بونز وكادت تحدث حرباً أهليه لولا تدارك الوسطاء ورضوخ الأمير بونز للملك بناء على قرار محكمته العليا. انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ3، ص 96- 99.

85- فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص279- 281 كانت مرافقة الصليب للملوك وقيامهم بتبجيله أمام الجيش كفيلة برفع الحالة المعنوية لديهم علي ما حدث على عصر الملك بلدوين الرابع المجذوم حينما سجد أمام الصليب وأجهش بالبكاء حينما علم أن صلاح الدين سوف يهاجمهم وحينها ارتفعت الروح المعنوية لدي الصليبيين"... وأقسموا على الصليب أن يحاربوا حتى النهاية..."، وقد دارت هذه الأحداث عند عسقلان ويشير السرياني إلي فرار صلاح الدين نتيجة لهذه الروح . انظر: ميخائيل السرياني، جـ5، ص 256.

86- فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص196-197؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ2، ص225، 151، جـ4، ص.152

87- راجع في ذلك:

Amalrici, Regis Hierosolymorum, t. XVI, pp.37-38; Amalrici, Regis Hierusalem, ad Ludovicum, t. XVI, pp59-60; Amalrici, Regis Hierusalem, ad Henricum, t. XVI, pp.187-188; Amalrici, patriachae hierosol, ad Ludovicum, t. XVI, pp.167-168; Amalrici, patriachae Hierosol, ad Ludovicum, t. XVI, pp.i 168.

88- De Expugatione Terrae Sanctae per Saladimum, pp.153-154, "Letters of the Crusaders", Trans in Munro (D.), Translations and Reprints from the Original Sources of European History, Vol 1;4, (Philadelphia: University of Pennsylvania, 1896).pp. 20-21.

وأيضاً: فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص280-296، 281-.298

89- وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ1، ص405، 410، جـ2، ص225، 151، جـ4، ص 151، 152.

90- الأصفهاني: الفتح القسي، ص48، 52.

91- عن العوامل التي تفاعلت للوصول بالمملكة إلي حالة الضعف تلك انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ3، ص 292-293، 305-313، 316-317، 331-343؛ القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، نشره ووضع فهارسه وقدم له: هـف. آمدروز، ليدن، 1908، ص 324-331.

وأيضاً:

Kinnamos, Deeds of john and Manuel Comnemus, trans, by Charles Brand, (New York, Columbia University Press, 1976), pp,139-140 -;

Pope Eugenius III, Letter to Louis VII of France and his Subject, in The Crusades Documents of Medieval History, vol.4, (ed.) Smaith, pp.57-61.

وأيضاً: عبد اللطيف عبد الهادي السيد: السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد بلدوين الثالث (1143- 1163م)، ماجستير غير منشورة، كلية الآداب- جامعة عين شمس، 1990م، ص 245؛ محمد محمد عبد الحميد فرحات: "الدور السياسي لبنات الملك بلدوين الثاني في الشرق اللاتيني"، دورية الإنسيات، كلية الآداب، فرع المنصورة، جامعة الإسكندرية، عدد13، 2003/، ص 291- 325.

92- فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص.246

93- ابن الأثير: الكامل، جـ1، ص.147

94- الأصفهاني: الفتح القسي، ص.52

95- أشار الأصفهاني إلى توظيف الصليب في معارك الصليبيين بقوله: "...فإذا أخرجته القسوس وحملته الرؤوس تبادروا إليه وانثالوا عليه، ولا يسع لأحدهم عنه التخلف ولا يسوغ للمتخلف عن إتباعه في نفسه التصرف، وأخذه أعظم عندهم من أسر الملك وهو أشد مصاب لهم في ذلك المعترك، فإذا الصليب السليب ما له عوض ولا لهم في سواه غرض... يتغاشون عن إحضاره، ويتعايشون لإبصاره، ويتلاشون لإظهاره ، ويتغاضون إذا شاهدوه، ويتواجدون إذا وجده، ويبذلون دونه المهج، ويطلبون به الفرج...فلما أخذ هذا الصليب الأعظم عظم مصابهم، ووهت أصلابهم، وكان الجمع المكسور عظيماً، والموقف المنصور كريماً...فهلكوا قتلاً وأسراً، وملكوا قهراً وقسراً..." انظر: الأصفهاني: الفتح القسي، 52.

96- Roger of Wendover, Flowers of History, II, pp419-420.

وأيضاً: أودليفر أوف بادربورن: الاستيلاء على دمياط، ترجمة: سهيل زكار (الموسوعة الشامية، جـ33، دمشق، 1998م)، ص 59.

وقد أشار بعض المؤرخين إلى الصليب المقدس في أحداث الحملة الخامسة على دمياط ولكن لا توجد همزة وصل بين أخذه في حطين وبين ظهوره فيما بعد بالرغم من أنه لم يعثر في الاتفاقيات التي عقدت بين المسلمين والصليبيين على ما يشير إلى إعادته من قبل المسلمين للصليبيين، ويؤكد ذلك ما أشار إليه المؤرخ ذاته وقت المفاوضات التي دارت بخصوص الصلح، بحيث تضمنت "أنه سوف يعيد الصليب المقدس الذي جرى الاستيلاء عليه من قبل في أثناء انتصار صلاح الدين وذلك مع المدينة المقدسة الأسرى..."، وهذا يعني أن ما حمله الصليبيون في الحملة الخامسة غير ما وقع في أيدي المسلمين في حطين، أي لم يسمح المسلمون بإعادة الصليب فظل وجوده في المفاوضات أمر عادي بالنسبة للصليبيين.

وفي المعنى ذاته يقول روجر أوف وندوفر: "... وفي العام نفسه (لم يقف الباحث علي التاريخ) ولدى انتهاء الهدنة المعمولة بين الصليبيين في أرض الميعاد والمسلمين وفي أثناء العبور الأول بعد المجمع المسكوني الذي عقد في اللاتيران (مجمع اللاتيران الرابع 1215م) احتشد جيش الرب في قوة عظيمة في عكا تحت قيادة ثلاثة ملوك هم: ملك بيت المقدس، وملك هنغاريا وملك قبرص... وبالإضافة إلي هؤلاء بطريرك القدس الذي حمل... رمز الصليب المانح للحياة، وقد انطلق خارجاً من عكا... يؤم معسكر الرب... وكانت هذه قطعة من صليب الرب حفظت مخفية بعد فقدان الأرض المقدسة والذين أخفوها هم من الصليبيين، وقد أخفوها حتى هذه الأيام، لأنه في أيام الصراع بين المسلمين والصليبيين في أيام صلاح الدين جرى قطع الصليب حسبما سمعنا من شيوخنا، وقد حملت قطعة منه إلي القتال، وهذه

القطعة هي التي ضاعت هناك، لكن القطعة التي بقيت أخفيت والآن أظهرت وعرضت، وقد زود بها الجيش لتكون راية له...".

ويشير أوليفر إلي وقوفه في محنة دمياط على كتاب بالعربية لم يكن مؤلفه مسيحياً أو يهودياً أو نصرانياً، وأن الكتاب تنبأ بما أحدقة صلاح الدين بالصليبيين وتتبع ما لحق بالصليبيين وصولاً للحقبة التي عالجها أوليفر وقت الحملة الخامسة، ثم ربط ذلك بتنبأ قدوم برسترجون من النوبة لهدم مكة"... ولسوف يفرق عظام النبي محمد صلي الله عليه وسلم مع أشياء أخرى لم تحدث بعد..."، وبالرغم من اعترافه بأن صاحب هذا الكلام كافر ولكنه يصدقه لأنه يعتقد"... أن بعض الكفار من الشعوب يمتلكون روح قدس على شفاهم لكن ليس في قلوبهم...". وبالربط بين هذا الكلام غير المنطقي على الأقل بسبب التناقض الذي وقع فيه المؤلف من وقت لآخر في موضوع واحد فإن له دلالة خطيرة وأن لم تكن جديدة وهي السعي للبحث عن معجزة أو التمسك بأهداب قصة لا تقبل من المرة الأولي ولكنه استخدامها للرفع من الروح المعنوية للصليبيين الذين انهزموا أمام دمياط في الحملة الصليبية الخامسة. انظر: أوليفر أوف بادربورن: الاستيلاء على دمياط، جـ33، ص 63،67. وأيضاً:

Roger of Wendover, Flowers of History, II, pp. 410,419-420.

97- عن الدور الدبلوماسي الذي وظفت له الرفات في أوروبا أنظر: الأمين أبو سعده: رفات القديسين، ص 436-.442

98- وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ2، ص109-110، جـ3، ص96-.99

99- فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص279.

100- جولات الراهب الدومنيكاني فليكس فابري ورحلاته، جـ38 (2)، ص .468

101- مني الباريسي: التاريخ الكبير، جـ5، ص 1882.

102-Roger of Wendover, Flowers of History, II, pp. 109-110.

103- قال الأصفهاني في ذلك: "...مقصوده إنهم يرجعون إلي بلادهم على حسرة الزيارة فيبقون على الاستنفار والاستثارة، ومن زار برد قلبه وتنفس كربه ولم يبق له في مشقة العود أرب، ولم يتصل له بهذه الديار سبب، فكان الأمر كما حسب...". بل وهناك بعد نظر آخر لدي صلاح الدين يشير إليه العماد الأصفهاني في معاملته لأسري المدن الذين دفعوا فديتهم وتقرر إطلاق سراحهم.

انظر: الأصفهاني: الفتح القسي، ص75- 67، 318-.319

104- الأصفهاني: الفتح القسي، ص.269

105- امبرويز: صليبية ريتشارد، جـ32، ص.328

106- الأصفهاني: الفتح القسي، ص 269-270؛ ابن شداد (بهاء الدين المعروف بابن شداد ت: 632هـ/1234م): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، دار المنار، القاهرة،2000م، ص134؛مجهول ": ذيل وليم الصوري ، ترجمة حسن الحبشي ، القاهرة ، 2002م، ص 208-211.

107- حينما لم يضمن صلاح الدين الوسيلة الأكيدة التي طلبها من الصليبيين لضمان استرداد أسراه وقت إرساله أموال فديتهم على مراحل فإنه توقف عن إرسال المال فقتل الملك ريتشارد الأسري المسلمين، ويؤكد ابن شداد عدم مرونة الصليبيين في مفاوضتهم بشأن الأسري، بحيث طلبوا مقابل أسري عكا كل أسراهم لدي المسلمين ومبلغ الفدية وصليب الصلبوت وهي مطالب مبالغ فيها. ابن شداد: سيرة صلاح الدين، ص 134. وأيضاً:

Richard of Holy Trinity, Itinerary of Richard I and others to the Holy Land (formerly ascribed to Geoffrey de Vinsauf), {Cambridge,ontario 2001), pp. 13-14.

108- الأصفهاني: الفتح القسي، ص.278

109- أمبرويز: صليبية ريتشارد قلب الأسد، جـ32، ص328- 339. وأيضاً: ابن شداد: سيرة صلاح الدين، ص133- 152،134.

وافق جاك دي فيتري ما ساقه أمبرويز في هذه الإشكالية بقوله: "...أعلن المواطنون (سكان عكا المحاصرة من قادة الحملة الثالثة) أنهم لا يستطيعون المقاومة أكثر، وسلموا المدينة على أن يخرجوا منها أحراراً وغير متضررين، وليحصلوا على هذا وعدوا بإعادة الصليب المقدس الذي فقده المسيحيون في المعركة، ولكنهم لم يستطيعوا أن يعثروا عليه، مما أثار غضب ملك إنجلترا الذي أمر بوضع جميع أولئك الواقعين في الجزء الخاص به من المدينة تحت حد السيف...". جاك دي فيتري: تاريخ بيت المقدس، ص.165

110- مجهول: ذيل وليم الصوري، ص 235-238. وأيضاً: الأصفهاني: الفتح القسي، ص291.

111- Roger of Wendover, Flowers of History, II, pp. 422-423.

وأيضاً: أودليفر أوف بادربورن: الاستيلاء على دمياط، جـ33، ص 110-111.

112- عن رحلات الحج المسيحي على الشرق ورواج تجارة الرفات المقدسة انظر: على السيد على: القدس في العصر المملوكي، ص 203-239؛ قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية، ص26- 29: زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص 21-.23

113- جولات الراهب الدومنيكاني فليكس فابري ورحلاته، جـ38 (1)، ص .1408

114- انظر: ريمون داجيل: تاريخ الفرنجة، جـ6، ص 287؛ تاريخ أسرة بلانتجنت، جـ30، ص .22

115- جولات الراهب الدومنيكاني فليكس فابري ورحلاته، جـ38 (1)، ص .1408

116- فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص299.

أشار ريمون داجيل على استخدام الرفات استخداماً عسكرياً واقتصادياً على النحو التالي: "...ولاقت هذه الأمور قبولاً عاماً وصدرت التعليمات بأن يتولي رجال الدين قيادة موكب يتبعه الفرسان والرجال الأقوياء، وأن يكون ذلك في اليوم السادس من الأسبوع على أن يحملوا الصلبان وآثار القديسين... فانقلب سوء حظنا إلى طالع طيب وبات كل شيء على ما يرام". انظر: ريمون داجيل: تاريخ الفرنجة، جـ6، ص 289- 290.

117- وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ2، ص221-222.

118- ابن الأثير: الكامل، جـ10،ص 158.

119- جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، جـ38 (2)، ص 472.

لعل من مظاهر ذلك التلهف "...وحصل – الضمير عائد على أمير أوربي زار القدس قبيل الحروب الصليبية ربما عام 1039م- على قطعة من الصليب المقدس من واحد من السوريين الذين كانوا يحرسون الضريح"، فضلا عن ما أشار إليه روجر أوف وندوفر ".... وحملوا معهم قطعة من صليب الرب ، كانت قد اكتشفت مؤخراً من قبل واحد من سكان القدس اسمه سيروس Syrus الذي كان قد أبقاها في حفظه وأنها وصلت إليه من عصور قديمة". انظر: تاريخ أسرة بلانتجنت، جـ30، ص22، وأيضاً:

Roger of Wendover, Flowers of History, II, pp, 60-62,109-110, 210-211, 341, 410-416.

120- جولات الراهب الدومنيكاني فليكس فابري ورحلاته، جـ38 (2)، ص 692.

121- مثال ذلك "...تحولت هذه الصورة كلياً إلى تكوين جسدي لذلك هي لا تتوقف لا ليلاً ولا نهاراً عن إعطاء زيت مقدس، وهو الزيت الذي يحمل منه الحجاج الذين يأتون إلى هناك من كل جزء من العالم قوارير صغيرة من زجاج...". ويرجع الباحث أن هذه القوارير كانت تمنح

لقاء تقديمات أو نذور. انظر: رواية عن الأرض المقدسة كتبت في حوالي عام 1350م، جـ38 (1)، ص 46.

122- Roger of Wendover, Flowers of History, 11,pp. 109-110.

123- فورزبورج: وصف الأرض المقدسة، ص 98، 159.

124- رواية عن الأرض المقدسة كتبت في حوالي عام 1350م، جـ38 (1)، ص 46.

125- إرنول: حولية إرنول، جـ37، ص 121.

126- جولات الراهب الدومنيكاني فليكس فابري ورحلاته، جـ38 (2)، ص 68، 584-585.

127- استخدمت بعض الرفات استخداماً عكسيا لوصف من يقوم بتقديرها ببطلان عقيدته فيها على غرار سخرية فابري من المسيحيين الشرقيين الذين يقطعون بعض الحجارة من المكان الذي عثر فيه على الصليب ووضع تلك الحجر في الماء وشربه وهذا كقبل بشفائهم من أي مرض أو حلاقة شعرهم ووضعه بتلك المنطقة كي يتم الشفاء، ويعتبر فابري مثل هذه العادات باطلة ولا أساس لها بل هي عادات دنسة غير مقدسة. انظر: جولات الراهب الدومنيكاني فيلكس فابري ورحلاته، جـ38 (2)، ص 454،485.

128- إرنول: حولية إرنول، جـ37، ص 121.

129- وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ2، ص.70

130- ريمون داجيل: تاريخ الفرنجة، جـ6، ص 238.

131- فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص.235

132- Radulph of Caen, Gesta Tancredi, A history of Norman on the first crusade, trans. By Bernards. Bachrach and David S. Bachrach, Abingdon, Oxon, GBR.,2005,pp.70-74.

133- مجهول: أعمال الفرنجة، ص 81.

134-Roger of Wendover, Flowers of History, II, pp 116-117.

135- ميخائيل السرياني: تاريخ ميخائيل السرياني، جـ5، ص 256.

136- ميخائيل السرياني: تاريخ ميخائيل السرياني، جـ5، ص 192.